أنيس منصور

قلوب صغيرة

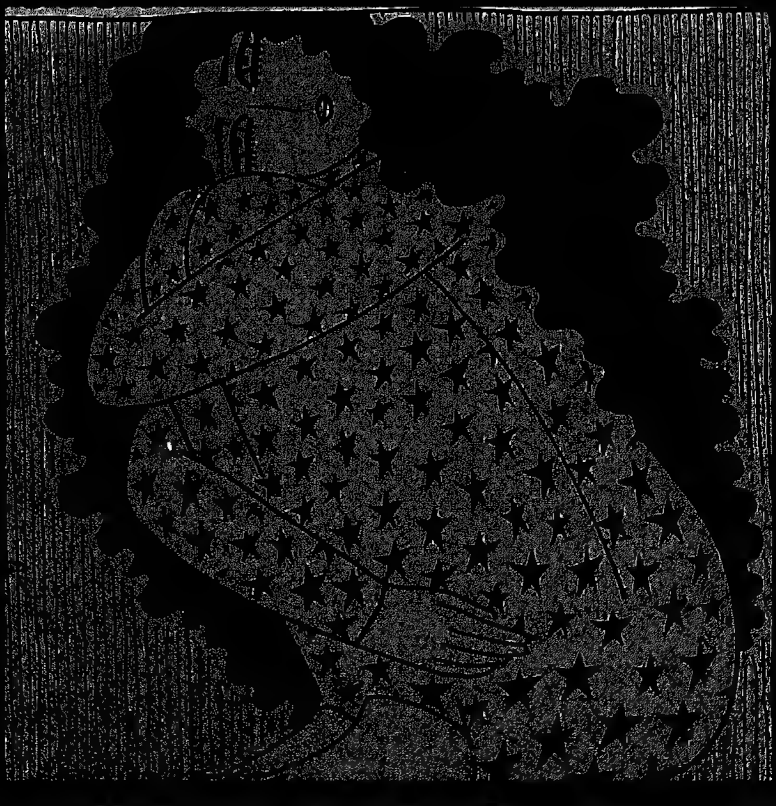

دار الشروق

قلوب صغيرة

الطبعة السادسة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الطبعة السابعة

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الطبعة الثامنة

١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة • ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص ب • ٨٠٦٤ - هاتف • ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

أنيس منصور

قلوب صغيرة

دار الشروق

قلب صغير :
قلب كبير :
إنــه قلبى !

كيف تنظر إلى ملابسك وانت صغير.؟

كيف تسمع حكايات طفولتك من أمك أو من جدتك ثم تضحك.

ولكن ما الذى يضحكك؟ الذى يضحكك هو أنك أمام قصص إنسان آخر.. كان طفلا وكان لا يعرف كيف ينطق الحـروف وكان لا يحسـن تقدير كل شىء..

ولكنه فى ذلك الوقت كان انسانا صغيرا شديد الحسـاسية سريـع الادراك..

وعلى الرغم من أن هذا الانسان هو أنت، فانك تنظر اليـه كأنـه انسان آخر! هل صحيح كانت ملابسك قصيرة إلـى هـذه الـدرجة.. وحذاؤك كان فى طول أصبع يديك.. كل ذلك صحيح. ولكنه غريب عنك الآن..

وهكذا نظرت إلى كتابى هذا عندما عاودت قـراءته لنشره للمـرة الثانية.. ان كل ما فيه دار فى رأسى طويلا.. وجلست أسجله يوما بعد يوم.. وانا مثل عبارات هذا الكتاب، شديد الحرارة والحمـاسة.. أرى

الدنيا كلها اقرب مما هى الآن.. فأنا استطيع ان اقول كل ما أريد.. واستطيع ان احكم على كل الناس وفى كل القضايا.. لا خوف.. لا احتراس.. هذا رأيي، وفى ذلك الكفاية وأنا المسئول عن كل ما أقول. وقد غضب منى الكثيرون، ولكن هذا الغضب طبيعى.. أى من الطبيعى ان يغضب الناس مما أقول وان ينزعجوا أيضا. ووجدت فى ذلك الوقت انه لا حرائق بلا نار، ولا نار بلا دخان ولا انفجار بلا دوى .

والشباب انفجار.. والانفجار نار وألوان ودخان وصراخ وضوضاء ورعب..

ولم أكن فى ذلك الوقت الا صورة أو انعكاسا لمئات الصور من الشباب فى مثل سنى وتجاربى وتطلعى وتعجلى وخوفى وتخويفى..

واندهشت جدا كيف ان عددا من القضايا العاطفية والجنسية والاجتماعية كانت تشغلنى اكثر من أى شىء. وكيف اننى كنت اضع اصابعى فى النور بلا خوف. فلم يكن الخوف هو الذى يسيطر على أصابعى.. ولكن المهم عندى هو ان «أمسك» شيئا.. وان انظر إليه عن قرب وان أزنه وأن اصفه وأن اقدمه، مهما كان الثمن. ولم اكن فى ذلك متسرعا ولا مستخفا ولا مستهينا بشىء أو بأحد. ولكن تحددت حياتى، حاضرى ومستقبلى فى أصبع.. أن أمسك بها ما أستطيع وأن اسجل بعد ذلك ما كان وما سيكون..

وقد تغيرت الدنيا فى يدى وفى عينى.. وأجدنى متمسكا بكثير من أرائى فى الحياة والناس - وفى الحاضر والمستقبل - وفى هموم الشباب.. ويدهشنى اننى تنبهت إلى كثير من هذه المعانى فى سن مبكرة. ولما مضت السنوات اضافت إلى أرائى الكثير من اللحم والشحم والقدرة على الاستمرار.

لقد كان شيئا صغيرا ولكن الصغير اصبح كبيرا.. كانت الهموم أصغر ولكنها أضخم.. كانت القلوب أصغر ولكنها أكثر نبضا وحيوية وكانت الأشياء الصغيرة هى التى تدخلها، أما الاشياء الكبيرة أو الكبائر فانها تسقط دونها..

ولكن قلب الطفل وقلب الرجل كلاهما قلب.. وهو يعلو ويهبط. ويضطرب ويهدأ.. لانه قلب..

وهذه الصفحات الحارة الصارخة ليست إلا خفقات من قلب امتلأ بالحرارة. ثم كان حريصا على أن ينقلها للآخرين.. لان القلب لا يدق وحده.. وانما هو يستمد دقه وهداه من قلوب الآخرين..

صحيح ان هذه الكلمات بامضائى، ولكن المعانى والحرص على وضوحها وتقديمها وعرضها وتحميلها.. كل ذلك كان من اجل الآخرين.. فالانسان يعيش وحده ولكن فى نفس الوقت مع الآخرين ولهم وحدهم.. وفى النهاية يتعايش معهم. يكون صوتهم، ويكون صداهم أيضا!

أنيس منصور

كلمة أولى

هذه أوراق متناثرة، تساقطت من شجرة واحدة، أو من عدة أشجار.. أو جمعت من عرض الطريق..

وكلها تشير إلى جوانب وصور من الحياة، صور قاتمة أو مشرقة..

فهى أحيانا بطيئة كالسلحفاة، أو سريعة كالثعلب، أو سائلة كالماء، أو خفيفة كالبخار، أو لامعة كالندى.. ولكنها هى الحياة دائما..

الحياة يراها الشباب سريعة فيتعجلها ويسابقها كما يفعل من يركب القطار ويجرى فيه من عربة إلى أخرى.. والقطار منطلق به.. تحت قدميه.

والحياة يراها العجوز.. تصفى حسابها معه.. تخلع أسنانه، وتطفىء الضياء حوله وتغرقه فى الظلام.. تماما كما يحدث عند الغسق.. فالضياء الحمراء تتلاشى فى الزرقاء، والزرقاء فى السوداء.. ويموت النهار والشباب والحياة.

والحياة يراها الزاهد.. يراها عدوا له، عدوا يتربص فى خلاياه وفى دمه وفى ضوء عينيه، وفى جمال الطبيعة، وفتنة المرأة، ورنة الذهب..

ولكن الزاهد لكى يقاوم الحياة يجب ان يكون حيا، ويجب ان يكون قويا.. لان الزاهد المريض أضعف من الزاهد الصحيح. يجب ان يتزود من الحياة ليقاوم الحياة.. يجب ان يشهر الحرب على نفسه ليستمتع بسلام دائم..

وهذه المقالات ليست إلا نقطا متجاورة.. فهى لا تكون خطا متصلا.. ولكن الحركة فيها تجعلها خطا متصلا.. تماما كالشريط السينمائى انه اذا نزعنا منه الحركة فهو لا يعدو أن يكون صورا متجاورة ويبدو كانه لا صلة بينها بعضها وبعض.. ولكن اذا دفعنا فيها شيئا من الصدق.. وفيها حركة وفيها حياة وفيها صراحة أيضا... وكلها عن الحياة وعن الحرية... وعن الحرية الشخصية.. وقد تكون كلمة «الحرية الشخصية» كلمة غريبة... ولكنا لاننا فى مصر عانينا الاحتلال السياسى أزمانا طويلة، فكل حديثنا عن الحرية، كان حديثا عن الحرية السياسية.. مع أن الحرية السياسية هى أضيق أنواع الحريات... وانما الاصل هو الحرية الشخصية، حريتى وحريتك...

وفى بعض هذه المقالات أصرخ وأنادى فكرى وأملى اننا فى حاجة إلى حريات شخصية إلى حريات عاطفية.

والتاريخ من أوله لآخره، ليس إلا تاريخ الدفاع عن الحريات والمطالبة بها، وبالمزيد منها كما يقول الفيلسوف الايطالى بندتو كروتشه.

أذكر أننى عندما زرت بيروت، لأول مرة، جلست مع بعض الأدباء فى مقهى صغير مقابل الجامعة الامريكية. وظللنا نتحدث عن الادب والنقد فى مصر وفى لبنان. وسالتنى أديبة فاضلة ماذا أعجبك فى بيروت؟

فضحكت وسكت. فأصرت على أن تعرف رأيى فى بلدها. فقلت لها: أنا أعجبتنى المكتبات وفهم الشباب للواقع والحياة.

ففي بيروت ضوضاء أدبية وفكرية. فهم في بيروت يترجمون بسرعة وينتشرون بسرعة ويوزعون ما ينشرون في كل الوطن العربي... فلا شيء يذكرني بسرعة الترجمة والتأليف والنشر الا سرعة التاكسيات هناك... فالتاكسيات تنطلق في أعالي الجبال والوديان بسرعة مخيفة... والأضواء الأمامية للسيارات مفتوحة بعضها على بعض... فلا تصطدم سيارة باخرى، ولا يصرخ سائق بوجه سائق آخر لان النور المسلط في وجهه عنيف... وهم كذلك في دور النشر، انهم ينشرون بسرعة، ويصعدون إلى قمم الفكر ببساطة وجرأة واجتراء كذلك، ويسلطون أضواءهم بعضهم على بعض...

انهم هكذا في بيروت في ضوضاء ضوئية وفكرية... فهناك كل المذاهب والاتجاهات.

وهم في بيروت يعيشون على التصدير أكثر مما يعيشون على الاستيراد... انهم تجار لا يستهلكون الا القليل من كل السلع ومن كل المذاهب الادبية والفنية والفلسفية...

وأعجبني هذا النشاط وتمنيت ان يكون لنا في مصر مثل هذا النشاط ومثل هذا الشباب والاقبال على العلم والادب والفلسفة والاقبال على عرضه وبيعه في كل مكان عربي...

أما شبابنا في مصر فهو شباب محروم من كل الحريات العاطفية وذلك يرجع إلى التقاليد المصرية البالية التي لقنها الأجداد للآباء ويلقنها الآباء للابناء. تلك التقاليد التي أرسخت في ذهن الفتاة أن الشباب ما هم الا ذئاب فانعدم الاتصال وتولدت العقد النفسية ونشا الحرمان العاطفي.

والحرمان العاطفي في مصر قد جعل شبابنا، شبابا هاربا.. لا يقبل على العلم ولا على الدرس، ولا على الكفاح... لماذا؟ لانه محروم... محروم عاطفيا.

فهو لذلك يكره حياته ووجوده كله...

ومن حق هؤلاء المحـرومين ان يعيشـوا وأن تسـتخدم قـواهم ومواهبهم وأحلامهم فى بناء مجتمع أحسن، يحبونه ويحبهم... ولـكن كل هذا لن يتم مادام هناك حرمان عاطفى...

وقد لاحظت وأنا أقوم بالتدريس فى الجامعة... ان الشباب يتركون العلم والبحث وينصرفون إلى الجلوس إلى زميلاتهم من الفتيـات... ولم يكن ذلك غريبا عنى.. وأنا كنت أتوقعه وأدعو اليه، فانا اعلم ان الجامعة ماتزال هى المكان الوحيد الذى يستطيع فيه الشاب الجامعى أن يجلس إلى فتاة آمنا مطمئنا..

أنيس منصور

بنات الليل

قرأت، كما لم يفعل أحد من زملائى أو أصدقائى، عن بنات الليـل أو بنات الهوى أو الساقطات.. إلى آخر هذه التسميات التى نطلقها عادة على فئة من النساء يعشن ليلا وينمن نهارا، ويضحكن دائما ويرقصن دائمـا، ويسكرن دائما.. ولكنهن شقيات تعسات.. تعسات جدا!

قرأت قصة الغانية «رينيه» وقرأت قصة أوربا واعترافات ديانا.. وخطيئة روزيت.. وعشرات من الكتب التى كنت أحس وأنا أقرأها اننى انظر مـن «ثقب الباب» الى المرأة وهى تنزع ملابسها قطعة قطعة، وتميل علـى كل قطعة تقبلها أو تضربها بحذائها، أو ترمى بها فى ركن من أركان الحجرة.

وكنت أطيل النظر من «ثقب الباب» فأرى وجوها مشفوفة هـزيلة، اذا زال عنها الاحمر والابيض بدت مجعدة باهتة التصـقت بهـا «مـاركة» الويسكى والنبيذ... هذه تذرع شوارع روما وهذه تذرع شـوارع بـاريس وهذه فى لندن، وهذه تبحث عن أمسها فى ليلة باردة.. والناس تروح وتجىء أشباحا قاتمة تظهر على وجنتيها وعلى شفتيها.. وهى تظهر حزينة سادرة..

أذكر أننى قضيت أربعة أيام كاملة اقرأ اعترافات احدى بنات الليـل، ولم أكد أفرغ من قراءتها حتى ثقلت نفسى وأحسست مرارة الدنيا كلها فى

فمى ورثيت لحالة «ليليان» التى ركع عند قدميها ألف رجل كما تقـول ف اعترافاتها وكان وراء حياتها قصة.. قصة صغيرة مازالت تكبر وتكبر حتى جعلت منها مأساة كبرى ظلت تكفرعنها، إلى أن انحسرت عنهـا الحيـاة، فإذا هى عارية تماما، وكان موج الحيـاة يسـتر مـرضها وشـقاءها وانسانيتها.. ثم ماتت كما يموت سائر الناس من القديسات والساقطات !

هذا يحدث كل يوم، أقصد كل ليلة فى كل مكان.. فعندما ينـام أبنـاء النهار، تصحو بنات الليل.. ويسرن فى الطرقات هائمات ثم يأوين مع الليـل الى كهوف فى الارض أو تحت الارض ويعشن حالمات بالحياة، يائسات من الناس، كافرات بالانسانية.

ولكنهن يتعلقن من الحياة بخيوط دقيقة، وبأعواد من الحطب تـربطهن بالشاطئ، ثم يواصلن الحياة تحت الارض.. فى دخان السـجائر، ونـواح الموسيقى، وجحيم الاضواء، الحمراء والصـفراء والخضراء.. ووراءهـن شياطين من الجرسونات، كأنهم أعمدة من الليل تحـرسهن مـن سـهام النهار..

وبنات الليل يظهرن فى الكباريهات أو فى «صناديق الليل» كمـا تـظهر الجثث الغارقة بالقرب من الشاطئ.. لقد مات أصحابها منذ وقت طـويل.. ولكن البحر لفظها فراحت تتحرك يمنة ويسرة . وتتعلق بالجثة أسماك جائعة أو عابثة، وتلعب الاسماك وتمرح، والجثة لاتدرى شيئا، لقد فارقتها الحياة منذ زمن طويل، وتعودت هى أن يأكلها النـاس ويشربـونها ويسـلخونها، تعودت أن يسلخوا ثوبها، وأن يسلخوا جلـدها.. ولـكن الجثـة لا تحس ولا تستطيع أن تقول :لا.. لان الحى وحده هو الذى يقول: لا، أما الميت فيقول :نعم.. نعم دائما !

وحين تطل بنت الليل من نافذة الكهف ترى أحذية النـاس.. أحـذية الآدميين وعجلات سياراتهم و«أعقاب» سجائرهم ولا ترتفع الـى أيـديهم

أو الى صدورهم أو الى رؤوسهم الا حين تصعد الخمر الى آذانهم: فلا يرون ولا يسمعون..

وبنات الليل فيهن طباع اللصوص والخارجين عن المجتمع فهن هاربات وأسماؤهن مستعارة.

وفيهن طبيعة الليل... فالسواد حول عيونهن، وفى نفوسهن وكلمة الحب التى تولد فى الليل تموت على ألسنتهن وتصبح لها معان مبهمة غامضة ..والحب والتضحية والبطولة والزواج والخيالية والمرض والموت كلها ألفاظ خرساء عرجاء.. وتسمع فى جو الموسيقى والرقص والألوان والكؤوس فى «صناديق الليل» كلمات أخرى غريبة: الخرشوف الذى يفيد الكبد وأقراص النوم وحقن الفيتامين المقوية للاعصاب، وبعض حروف كلمة الزرنيخ والحديد والزرنيخ فقط..

وأقصى ما تتمناه بنت الليل هى أن تكون انسانا عاديا تعيش مع زوج يعرفها ويحبها، يغفر لها ظلم الناس لها ثم له منها ما يشاء، أن يحبسها فى قفص من حديد، ويلقى لها بالطعام والماء.. مادام يحبها، مادام يحس أنها إنسان له حق الحياة ككل الناس، وأنها قد لقيت عقابها على ذنب ألصق بها ولم تقترفه..

وكثير من الادباء والفنانين قد تزوجوا من فتيات الليل، وعاشوا حياة سعيدة، فقد تقاربوا فى الالم وفى العذاب وفى الثورة على مجتمع ظالم.. وكثير من العظماء قد تزوجوا بفتيات الليل وارتفعوا بفضل هذه الفتيات إلى العروش، ووضعت فوق رؤوسهم التيجان، ولم يقف وراءهم زبانية الليل، وانما سادة النهار.. وغفر الناس لفتيات الليل ما فعلن فى الظلام وما رأين فى الليل.

وكثيرا ما تفر فتيات الليل من ليل الناس الى نهار القديسين والانبياء فينطلقن إلى الدير يعكفن على العبادة والغفران، كما فعلت «تاييس» وغيرها كثيرات.. فتهرب من الناس الى الله، وتهرب من الدنيا الى الآخرة..

وفى هذا النهار المظلم تعيش بنت الليل تبكى وتئن وتغسل خمر الليل بماء النهار، وتطرد أصداء الموسيقى الصارخة، بهمس العبادة الهادئة.. وتمحو من عينيها صور الوحوش الكاسرة، بصور الرهبان الخاشعين.

مر هذا بخاطرى كله.. وأنا أسمع قصة فتاة من أسرة كبيرة لم توفق فى حياتها الزوجية، فكفرت بكل حياة، وكفرت بكل قيمة وبكل دين وبكل أمل فى حياة أخرى سعيدة أو نصف سعيدة..

وهجرت البيت لأنه يذكرها بحياتها السابقة، وكرهت الحب لانه يذكرها بقيود الزوج وقيود البيت وقيود الوفاء.. تقبل على كل الناس من تعرف ومن لا تعرف.. لا تهاب أحدا، ولا تضيق بأحد، تمد يدها لكل شاب، وتعطى فمها لكل فم، وخصرها لكل ذراع، وأذنها لكل كلام.. فكانت كرة لكل قدم، ولكل مضرب، تلقى فى كل شبكة، ثم تنفجر اذا وخزوها بدبوس تتور وتثور.. ان الناس لا يعرفونها انها تنتقم من ظلم وقع لها وعليها، فآثرت أن تموت بأيدى الناس لابيدها، وأن تموت تحت عيون الناس، لا بمفردها.

انها تشرب ظنا منها أن الشراب سيغرقها من الداخل، وحينئذ تموت دون أن تحس بالموت أو بغصة الموت ولكن الحياة ما تزال تغالب نزعات الفناء، والانتحار..

ورأيت هذه الفتاة واستمعت اليها، فاذا همساتها صراخ واذا صراخها ضحكات هستيرية، وابتسامها حزن، وقوامها هيكل.. علقت عليه صورة باهتة لفتاة كانت شابة، ثم اكل عليها الليل وشرب.. فاذا هى جافة معصورة ممصوصة، واذا رأسها منتفخ كرأس الكبريت لا تكاد تمر به على ظلمة الليل حتى يشتعل.. وكلهن كذلك أعواد كبريت فى صناديق الليل.

انها وغيرها كالكأس، اذا ضغطت عليها انكسرت. انها كالكأس ضعيفة سهلة.. تتلون بلون الشراب الذى تفرغه فيها. وعواطفها تتحرك كما تتحرك قطع الثلج فيها جامدة باردة..

وفى كل يوم، أعنى كل ليلة.. يضربها الموج يمنة ويسرة.. فتتعلق بلــوح من ألواح الليل : غنى جاهل أو فقير معذب، أو هارب من النهار. وكل يوم تفتح عينيها على شاطئ جديد.. والموج يضربها والاسماك تأكلها.. وتعــود هى الى الكأس تملؤها وتميل عليها، فتتساقط فيها الدموع تملأ الـكأس.. وتشرب هى الدموع، لتذرفها مرة أخرى..

وتتصادم الكؤوس والموسيقى تطلق غربانا من الانغام تهوى على هــذه الجثة تنتشلها من مقعدها، وتلقى بها الى «ألواح الليل»، ويلفها بحر مــن الدخان، على شواطئه جرسونات كأنهم المنائر السوداء يحولون بينها وبين النهار. لتظل غارقة فى الليل، حتى تموت مرة أخرى.

ليلة الزفاف

بعد أن تخرج الضيوف وتسكت الموسيقى، وتتحرك مواكب الحماة وعواجيز الفرح، والأصدقاء والاعداء والاقارب والعقارب.. بعد أن تخرس الشوك والسكاكين، وتتساقط الانوار.. بعد هذا كله تبدأ ليلة الزفاف.. تبدأ اللحظة الرهيبة فى حياة كل عروسين.. انها اللحظة التى كان يحلم بها الزوج وتتهيبها الزوجة!

يقف الزوجان الجديدان وجها لوجه.. فلا أحد معهما لا أبوها ولا أمها ولا أخوها ولا صديقاتها.. أنها تقف مع رجل غريب، رجل تحبه قبل ليلة الزفاف.. ولكنها فى هذه الليلة تخافه ترهبه ترتعد منه.. لا تدرى ماذا أخفى لها فى قلبه، أو فى رأسه أو لمعان عينيه.. انها لاتعرف، فهذه هى أول مرة تقف معه وحدها، والناس كلها تعلم أنهما وحيدان وأنهما يقفان سعيدين وجها لوجه. ولكن الناس لا تدرى خوف العروس، والعرق الذى يتصبب من جبينها يكتسح البودرة والاحمر ويكتشف ضعفها امام رجل غريب عنها، رجل كان لطيفا، ولكنه فى تلك الليلة ليس كذلك.. انه هو الآخر مضطرب، فنظراته قد تغيرت، وصوته قد اصبح مبحوحا، وهو الآخر يتصبب عرقا ولكنه يتمالك شجاعته لانه رجل، ولابد أن يكون شجاعا.. ولا بد أن يكون هو سيد الموقف، وسيد الليلة، بل سيد هذه اللحظة، التى

تسكت فيها كل الاصوات... كأن الدنيا كلها قد انسحبت، لتهيئ لهما هذا المسرح.. لقد رفع الستار عن رجل يجب ان يمثل دور البطولة والشجاعة، أمام جمهور على استعداد لان يصفق له ويقبله ويعانقه، جمهور يحبه.. انها الاعصاب، انها اللباقة، انها الشجاعة والخبرة.. وليس هذا كله بالشيء القليل!

انهما الآن وجها لوجه!

هذه أصعب لحظة فى حياة العروسين.. انها لحظة كلها اصفرار وعرق ورعشة..

انها اللحظة التى تتحكم فى كل اللحظات التالية، انها كلمة السر فى حياة طويلة بعد ذلك.. انها مفتاح السعادة أو التعاسة فى حياة زوجين!
انها بالنسبة للفتاة المصرية المحافظة تجربة رهيبة مخيفة انها تجربة لم تعرف عنها شيئا، لم يقل لها أحد ما هى ولا كيف تكون، ما لونها ما طعمها.. فأمها لم تقل شيئا، لأن هذا عيب والمدرسة التى تعلمت فيها لم تقل لها شيئا، فهذا عيب..

ان لدينا مدارس ومعاهد وكليات لاعداد أصحاب المهن والوظائف كالاطباء والمحامين والمهندسين وغيرهم.. ولكن ليس لدينا معهد واحد أو مدرسة واحدة لاعداد الأزواج واطلاعهم على الحياة الزوجية، على الرغم من أن «الزوجية» هى أقوى وأعقد علاقة بين رجل وامرأة. انها علاقة صداقة دائمة، انها أول علاقة بنائية للمجتمع!

والفتاة المصرية تدخل هذه الحياة الجديدة، سرا.. تدخلها خائفة، لان الانسان يخاف الشيئ الذى يجهله، ولانها تعلمت ان اقتراب رجل من امرأة حرام وخطيئة وحتى لو اقتنعت بأن صلتها بزوجها ليست خطيئة فان احساسها بالخطيئة لا يتلاشى، بل يظهر بين حين وآخر.. انها تشعر بالخوف من زوجها، وبالخجل مما سيكون!

وقد فشلت زيجات لانهاية لعددها بسبب ليلة الـزفاف، فقـد أصـيبت العروس بخيبة أمل. كانت تحلم بالموسيقى وبـالورود وبـالعطر والـكلمة الجميلة والصوت الحنون والاصابع الناعمة، تلمس ذراعيها، والفم الـدافئ يعانق شفتيها، والانفاس العطرة ترتاد وجهها.. وضوء حالم خافت وعنـاق طويل، وأحلام ذهبية!

فاذا الواقع شيء آخر.. فلم تكد تنظر الى نفسها فى المرآة تحـاول أن تنزع ملابس الزفاف، حتى رأت رجلا عاريا له كرش كبير، يمسح شـواربه ويعطس ويسألها فى صوت غليظ، لم تسمعه من قبل.

ـ ازاى الصحة؟

فتقول له: الحمد لله!

ـ انت مبسوطة؟

ـ الحمد لله!

ـ انت تعبانة؟

ـ لا!

ـ لا أنت تعبانة!

ـ ...

ويتوارى الورد والعطر، ويظهر العرق والشخير... وتصاب العروس بأول صدمة فى حياتها، صدمة تزلزل كل حياتها، ولا تفيق منها أبدا.. فاذا هـى تكره الحياة الزوجية وتكره زوجها وتكره حياتها، هى وتتمنى ان تكون أى شيء، إلا أن تكون زوجة لمثل هذا الحيوان!

ان الزوج يجب أن يعرف شعور زوجته.. ومدى اضطرابها، ومدى خوفها وخجلها.. وأن يتصرف بلباقة وحذر.. فلا شيء كما يقول الاديب بلزاك، فى الحب يجيء اغتصابا!

وفواكه الحب، ككل الفواكه، يجب أن يتمتع الانسان بالنظر اليها قبل أن نقطفها وقبل أن نأكلها!

وهناك عشرات الكتب عند الاوروبيين عن الزواج وعن ليلة الزفاف أو عن ليلة «الدخلة» كما نقول فى الريف المصرى... وعشرات بل مئات.. فهذه الحياة الجديدة تستحق الاهتمام وتستحق الدراسة، ويجب أن تفهم الفتاة كل شىء بوضوح، وحينئذ يتلاشى الخوف ويتوارى الخجل..

يجب أن يعلم الآباء والامهات أن الطفل الذى يخاف من الطفلة وهو صغير، من الصعب عليه أن يغير هذا الفهم اذا كبر وصار شابا. ولذلك يجب أن يحرص الآباء على عدم الفصل بين الجنسين فى البيت وفى الحديقة وفى المدرسة.. وأحسن الشباب هم الذين لا يخافون، ولايحقدون على بنات الجنس الآخر.. يجب أن يحرص الآباء على التقريب المستمر بين الفتى والفتاة، وإذا كان الفتى يستطيع أن يعبر عن رغباته، ويستطيع أن يحقق الكثير منها، فان الفتاة المصرية لا تستطيع شيئا من ذلك، وهى تكبت رغباتها، وتدفن مخاوفها فى نفسها.. ولكن هذه الرغبات المكبوتة ستظهر فيما بعد، وهذه المخاوف ستنهض حية من حديد.. والحياة المثالية، هى الحياة التى خلت من المخاوف المكبوتة أو المدفونة، ولا شىء يقضى على هذه المخاوف إلا الاختلاط.

وليست الزوجة المثالية هى التى لم تنظر من باب أو شباك ولم تر رجلا قط، بل هى التى خرجت ونظرت وسمعت.. هذه هى الزوجة الحقيقية ذات التجربة، وكذلك الرجل!

ويجب أن يحرص الآباء كذلك على أن يطلعوا الأبناء والبنات على حقيقة هذه الاحساسات الغريبة نحو الجنس الآخر.. ومن الافضل أن يعرف الطفل ذلك من أبويه.. وعند ذلك يتعلق بهما ويجعل منهما صديقين، كما أن الابوين يدليان الى الطفل أو الى الطفلة بالمعلومات السليمة، لا المشوهة التى يتلقاها من الشارع.

وبذلك يحس الطفل أن المشاكل الجنسية ليست سرا كما أن الكلام عنها ليس عيبا ولا حراما، وأنها علاقة انسانية خطيرة.

والخوف أو الخجل الذى تحس به الفتاة مصدره أنها تعلمت أن الرجل حيوان مفترس، وأنه كائن مخيف، وأن كل اتصال به حرام وخطيئة، ولذلك فهى تخجل من أن يؤدى بها الزواج إلى أن تنام الى جواره وأن تعاشره، وأن تقع فى المحظور، أن تقع فى الخطيئة..

هذا الاحساس بالخطيئة يجب أن يزول.. يجب أن يتوارى نهائيا، ليحل محله الاحساس برباط انسانى مقدس، له الاحترام والاكبار!

وكثيرا ما كانت الأفراح مباغتة أو مفاجئة.. فالفتاة تفاجأ بأن زوجها الذى لم تجلس معه إلا ساعات قليلة سيزف إليها بعد أيام.. وهى لم تعرف شيئا ولم تتهيأ لشىء.. فتكون ليلة الزفاف حادثا مفزعا، يصيبها بالذعر والفزع، ولا يختفى أثر هذا الفزع من حياتها مطلقا.. بل انها تتذكره مدى حياتها.. اننى أعرف سيدة مثقفة، كلما مر بخاطرها يوم الزفاف، وتخيلت أن زوجها قد أقفل الباب بالمفتاح، كانت تصاب بغثيان، وتحس أن معدتها ستخرج من فمها. ولم تتخلص هذه السيدة من الاحساس بالقرف حتى هذه اللحظة.

وعلاج هذا الفزع هو أن تطول فترة الخطبة.. وأيام الخطبة هى أيام الحرمان والاحلام، وأيام الاحاديث عن السعادة وعن البيت الجديد والمولود الجديد.. وفى أيام الخطبة يستطيع الزوج أن يحدث زوجته عن كل شىء، وحينئذ لا تصبح ليلة الزفاف مصدرا لخوف أو لخجل.. والفتاة الاوروبية هى الفتاة التى تحرص دائما على أن تطول فترة الخطبة لتعرف الزوج وليعرفها الزوج، فلا يكون أحدهما غريبا عن الآخر..

والزوج مطالب بأشياء كثيرة، ليس أقلها الشجاعة واللباقة.. يجب ان يعرف الزوج أن زوجته كائن حى له حقه فى أن يقول لا وفى أن يقول نعم،

وأن قسيمة الزواج ليس معناها التصريح للزوج بأن يفعل كل شئ فى أى وقت على النحو الذى يشاء.. أبدا، فالزوجة من حقها ان تقول لا وأن يكون لها رأى وأن يقام لاحساسها وخوفها وخجلها وزن كبير.. ولذلك نجد الكثير من الأزواج يؤجلون ليلة الزفاف أو اللقاء الحقيقى مع الزوجة أياما وفى بعض الاحيان أسابيع عديدة.. حتى يستريح خاطر الزوجة وتطمئن ويخف خوفها وخجلها.. وليعلم الزوج أن أية غلطة يرتكبها فى هذه الليلة لا تمحى أبدا.

ولتعلم الزوجة كذلك.. أنه يجب ألا تقف مكتوفة اليدين أمام زوجها بل يجب ان تلتقى به فى منتصف الطريق، وأن تعاونه على تذليل مصاعبها هى أو مشاكلها هى.. وموقف المرأة فى ليلة الزفاف لن ينساه الرجل..

وعلى الزوج أن يترفق بزوجته وبضعفها، لان هذا الضعف قد ورثته عن المجتمع الذى قدمها له، دون أن يمدها بأية معلومات عن زوجها. فليترفق الرجل بزوجته، فانها زجاج رقيق.

وليعلم الزوجان كذلك.. ان ليلة الزفاف فيها كثير من خيبة الامل، التى تصيب الرجل وتصيب المرأة، ولكن هذا الاحساس طبيعى لان الخيال أقوى بكثير من الواقع، ولكن ليس معنى ذلك أن الحياة الزوجية شىء سخيف ولا مبرر لاستمرارها.. ولكن الحياة الزوجية يمكن تجديد السعادة فيها، وإدخال التغيير فيها فلا تصبح مملة ولا تصبح رتيبة!

ويجب ان تعلم الزوجة والزوج كذلك ان الطيور تغرد وتغنى شهورا قليلة من كل عام، حين تبيض وتفرخ فانها تكف عن الغناء والتغريد..

والزوج لا يمكن أن يغنى أو يغرد طول العام ولذلك يجب ان تعاونه الزوجة على الفرار من الملل والقرف.

وكثيرا ما يحس الزوجان أن حياتهما فارغة أو أنها ثقيلة وأنه لا يوجد سعداء متزوجون.. وان الزوجين المثاليين هما الزوجة العمياء والزوج الأطرش!

ولكن هذا احساس يجب أن يقضى عليه الزوجان معا.. والحياة الزوجية تعاون وتساند وشركة بين اثنين، وشركة قائمة على الصداقة والتضحية المستمرتين!

هذه اللحظة الاولى من الليلة الاولى من الشهر الاول هى اللحظة الفاصلة فى حياة الرجل والمرأة.

انها لحظة تستطيع أن تجعل من شهر العسل شهر عسل بلا نحل،أو شهر نحل بلا عسل!

إنه الملل

ما هى أجمل أيام الحياة الزوجية؟

انها الايام التى تسبق الزواج.. انها أيام الخطبة.. فكل شىء يلمع وكل شىء يضحك.. العينان والشفتان والقلب وحماتك!

وعروسك تسألك: أين كنت أمس بعد أن خرجت من عندنا؟ هل نمت مباشرة؟ ألم تفكر فى أحد فى نومك؟ حتى أنا؟ ألم تحلم مرة واحدة بى إلى جوارك؟

فتقول أنت بصوت متهدج: والله أنا لم أتمكن من النوم مباشرة.. لولا الأسبرين.. الحمد لله.. لقد قمت وأشعلت البوتاجاز..

- يا سلام! أنت الذى أشعلت البوتاجاز، وأين كانت ماما.. لماذا لا توقظها؟

- الحمد لله لم يحدث شىء، وأعددت قدحا من الشاى وشربته.. والآن صحتى أحسن.

- ألف سلامة يا روحى.. ألف سلامة يا حبيبى.. والله أنا قلبى كان..

- مفيش حاجة.. يظهر أنه برد.

- والله ماما.. قبل أن تقول لى صباح الخير.. قالت لى · اسألى عليه يا بنتى انا لاحظت انه كان مخطوف.. كان التعب ظاهر عليه..

وطبعا حضرتك صدقت أنك مخطوف اللون والقلب وأن التعب كان ظاهرا عليك وقمت بدور المريض الذى يتهافت المحبون على السؤال عليه.. لابد أن كل زوج يعرف هذه الايام التى تحدث مرة واحدة فقط فى حياته كلها، مهما تزوج..

ولابد أن كل متزوج يعرف المثل البلدى الذى يقول: أول يوم قمر منور، وثانى يوم طبق مدور، وثالث يوم عفريت مصور!

لقد اختفى القمر المنور وراء سحب الزوجية، ولم يبق الا العفريت المصور الذى هو حضرتك، وأنت عفريت فى عين زوجتك وأمها وخالتها وجارتها ورحم الله أيام زمان.. أيام كانوا يضعونك على الرأس ، ثم أنزلوك إلى الكتفين ثم ألقوا بك تحت القدمين.. كانت أياما جميلة!

وبعد أيام الخطبة الجميلة ننتقل إلى أيام أخرى أقل لمعانا وأقل ابتساما.. ولاتزال هذه الأيام تنطفئ وتخمد حتى تصبح باردة عادية.. فلا بهجة ولا لمعان!

فهل تعرف هذا الشىء الذى يأكل اللمعان، ويمتص الابتسام؟

هل تعرف هذا الشىء الذى يأكل سعادتنا كما يأكل الفأر قطعة من الخبز؟

هل تعرف ذلك الذى يأكل ابتسامتنا كما تأكل العتة ملابسنا.

هل تعرف ما الذى يحطم الحياة الزوجية كما يحطم السوس الاسنان البيضاء اللامعة؟

هل تعرف ما الذى يمتص راحتنا، ويبتلع بهجتنا، ويجعل نهارنا ليلا، وحياتنا عذابا؟

إنه الملل! انه الملل!

عندما يحس الزوج أن زوجته عادية، وأن وجهها ككل الوجوه، فلا لمعان فى عينيها، وأن شفتيها أرفع من موسى الحلاقة، وأن صدرها قطن وأن وسطها كوسط النخلة، وأن ساقيها خشب، وأن صوتها رعد، وأنها تنظف أسنانها بمسامير، وتمسح أذنيها بفرشاة، وأنها يجب أن تحلق شاربها ولحيتها.. وأن بطنها ينتفخ وأن هذا الانتفاخ يهدده بانفجار يزعزع الاسرة ويلقى فيها بطفل جديد هو «العقدة» التى تربط طرفى حبل الزوجية. وعندما يحس أنه لا أمل فى هذه الحياة، وأن رحمة الله على أيام زمان.. أيام الخطبة!

ولابد أن تقضى على الملل.. ولابد أن تقتله وإلا قتلك..

ولا شىء يقضى على الملل إلا التغيير والتبديل..

يجب أن تغير زوجتك، وليس معنى ذلك ان تتزوج سيدة أخرى غيرها.. بل أن تجعل منها شيئا آخر، أن تراها فى أماكن أخرى.. اخرج بها إلى الشارع، اذهب بها الحدائق تنقل معها بين أقاربك وأقاربها.. انطلق معها إلى السينما.. إلى الريف.. إلى أى مكان غير البيت. يجب ان تأكل مرة أو مرتين خارج البيت.. ولو على شاطئ النيل، أو شاطئ الترعة أو حديقة الاسماك أو حديقة الحيوان وحتى فى السطوح.

وليس المهم أن تغير الزوجة حجرة النوم، وتضع السرير بجوار الباب بدلا من أن يكون بجوار النافذة، وأن تجعل حجرة الجلوس مكان حجرة الطعام، وأن تأكل على الطبلية بدلا من الأكل على السفرة.. ولكن المهم أن يحدث التغيير الداخلى.. أن يتغير لونها فى عينيك، ويتسع قلبك لكل شىء جديد أو قديم.

إن الماء إذا وقف اخضر لونه، وأصبحت رائحته كريهة، وأن الحجـرة إذا أقفلت مدة طويلة فسد هواؤها..

إن الماء العذب هو الماء الذى يجرى ويتحرك، وأن الحجرة التى تنفتح نوافذها وأبوابها، هى الحجرة الصحية..

فافتح النوافذ والابواب، لانه لابد من تكييف هواء الحياة الزوجية..

وإلا أصبحت كريها عند زوجتك، وأصبحت زوجتـك كريهـة عنـدك.. وأصبحت كل النساء أجمل من زوجتك وأصبح كل الرجال أجمـل منـك.. وإذا أنت مشغول عن زوجتك بزوجات الآخرين، وأصبحت هى مشغولة عنك بأزواج الأخريات..

هل تعرف ما هى التهمة الأولى التى توجهها كل الزوجات لأزواجهن فى الشهور الأولى من الحياة الزوجية؟

إن الزوجة تتهم زوجها بأنه أناني.. ولا تتردد أبدا فى أن تقول لـزوجها بأعلى صوتها وصوت أمها : أناني!

لماذ؟ ألم يكن هذا الزوج جميلا طيبا شهما منذ وقت قصير؟ ألم يـكن يسهر على راحة زوجته؟ ألم يكن يحمل لها حذاءها من الدكان إلى البيت ومن البيت إلى الدكان؟ ماذا جرى؟

كل هذا لا يشفع عند الزوجة إنه رجل أنانى لا يفكر إلا فى نفسه وإلا فى راحته هو، ولا يحس بمتاعب الآخرين ولا يعنيه أن زوجته سـواء كانـت مريضة أو متعبة أو قرفانة.. إنه يتركها طول النهار وبعض الليل.. ويـظل خارج البيت مع زملائه وأصحابه.. إنه حيوان، إنها لم تـكن تـظن أنـه سيكون كذلك فيا خيبة أملها، ويا ميلة بختها، ويا ضيعة أيـام الخـطبة.. يا ألف خسارة ويا شماتة الناس كلها.

وتنسى الزوجة الجديدة السعيدة، أنه أى زوجها المبارك، مضطر إلى أن يعمل، وأن العمل لا يمكن أن يكون فى البيت، وأن هذا العمل مرهق، وأنها ليست كل حياته، بل هى جانب من حياته وأنه بعد التعب، لابد أن يستريح، وأن الراحة لا يمكن أن تكون إلا فى البيت، لا فى خارج البيت، فيعود إلى البيت ليأكل وينام ويستريح ليواصل كفاحه من جديد..

ولكنها مصرة على أن زوجها أنانى.

أعرف رجلا يدمن التدخين، وكان بين الحين والحين يقدم لزوجته سيجارة تعبث بها وتنفخ فى الهواء، ولكنه لاحظ أن زوجته تطلب منه أكثر من سيجارة فى أوقات متوالية، فجعل يمتنع عن اعطائها السجائر.. فما كان من الزوجة إلا أن نهضت واقفة وقالت : أنت أنانى !

هو أنانى لماذا؟ لأنه مدمن سجائر ولا يريد أن تقع زوجته فى نفس الخطأ الذى وقع فيه !

ولكن لماذا تتهم الزوجة زوجها بأنه أنانى، أو بأنه «بارد» لا يحس بها؟ إنه الملل ! إنه الملل دائما !

لقد أحست الزوجة بأن كل شىء حولها لا يتغير، وأن زوجها مايزال يحتفظ بمرحه، لأنه يخرج ويقابل الناس ويتحدث اليهم، وهو بحكم وضعه الاجتماعى أكثر حرية وأكثر انطلاقا.. ولكنها هى تحس أن الدنيا واقفة جامدة لا تتحرك ولا تتغير وأنها قد أخذت تمل وتحس بأن طعم الحياة مر على لسانها.. أما زوجها فليس كذلك.. فتقول فى نفسها انه انانى، فلو كان يحبها لوجب أن يكون متعبا مثلها قرفانا مثلها.. فإذا قالت : آه، أحس هو بالمغص، وإذا أطبقت جفنيها، نزلت الدموع من عينيه، وإذا قالت له : أنت أنانى، قال هو: هات رجلك أبوسها !

والملل هو الفأر، الذى يأكل حياتنا ولا تنفع معه المصيدة، وهو العتة التى تأكل ملابسنا ولا ينفع معها النفتالين وهو مرض ضعيف اذا فتحت له

الباب خرج من النافذة.. واذا خرج الملل من النافذة دخل
الباب، وتحولت أنت من عفريت مصور إلى طبق مدور، إلى
وانتقلت من تحت قدمي زوجتك، إلى كتفيها ثم على عينيها

لأنك غيور أبله

قرر أن يتركها وألا يراها، وألا يسمع صوتها، وألا يفكر فيها.. وأن يحكم عليها بالطرد من حياته. إنه يريد الحرية، يريد أن يحطم القيود التى فرضتها على يديه وعلى لسانه وعلى قلبه وعلى عقله..!

إنه إذا جلس مد يده إلى التليفون ليسأل عنها، ويقول لها: ماذا أكلت أمس وكيف نمت.. وكم قرصا من الأسبرين أخذت.. وهل شربت اللبن اليوم.. والحبوب المنومة والحبوب الملينة.. والاتوبيس.!

وإذا ذهب إلى مكان ما.. فلابد أن يتصل بها تليفونيا ويقول لها: أنا هنا ومعى فلان وفلان وسأبقى ساعة.. ولن أشرب خمرا ولن أرقص. والسيدة التى تجلس إلى جوارى هى أم أحد أصدقائى.. والمنضدة التى وراءنا يجلس عليها أربعة رجال ومعهم فتاة فى السابعة من عمرها.

وحين يلقاها سعيدا مرحا تسأله: لماذا أنت مبسوط.. لابد أنك قابلت فتاة من فتيات الماضى.. إننى أعرف أن هذا الصنف من الفتيات هو الذى يدخل السعادة على نفسك!

وحين يلقاها مهموما مكدودا تسأله: أين سهرت ليلة أمس.. إنك لم تنم.. طبعا حين تكون مع الفتيات القديمات تضحك

وتروى أحدث نكتة. وعندما تراني تبدو حزينا.. الضحك لهن، اما الحزن فلى أنا وحدى!

وضاق بهذه القيود وهذه الحدود وتلك السدود.. كل يوم شئ جديد ممنوع، والذى تمنعه اليوم، تسمح به غدا، وكل يوم لها قانون ولها قواعد.. وكل يوم تدفعه إلى السجن، وتمنحه الحرية.. وكل يوم تهمة جديدة، وبراءة جديدة..

إنه لا يعرف معها كيف يكون بريئا، ولا حتى كيف يكون مجرما، إنه صديق اليوم، وعدو الغد..

إنه يريد أن يتفق معها على مبدأ.. على قاعدة، على حدود.. كلما حاول ذلك معها، ثارت مشكلة جديدة، وكلما سكت ظهرت مشكلة أخرى!

لقد تعب من السلاسل التى يخلعها من عنقه ليضعها فى رجليه، ويحملها من رجليه ليضعها فى يديه، ومن يديه ليضعها حول قلبه، وحول رأسه..

لقد تعب. فماذا يصنع؟

قرر أن يتركها.. أن يذهب إليها وأن يعلن عليها العصيان.. أن يعلن الثورة، أن يقطع علاقته بها.. وفى الطريق إلى بيتها، راح يدير فى رأسه ماذا يقول لها.. فإذا قالت له: إننى أعرف لماذا جئت فى هذه الساعة من الليل.. إننى أعرف.. إننى أستطيع أن أقرأ أفكارك.. إنك.. إنك.. إنك من هؤلاء الرجال الذين لا يستطيعون أن يخفوا شيئا.. إن نفوسهم شفافة. نفوسهم كالماء ضعيفة، ولكنها شفافة طاهرة!..

وحين تقول له، وماذا تظن إننى فاعلة. يرد عليها قائلا: (حسنا) لقد ارحتنى من أن أقول لك لماذا جئت فى هذه الساعة؟ أنت تعلمين إذن! وكنت تتوقعين أن أجئ إليك وأقول لك هذا الذى تعرفينه حسنا!..

وحين تقول له: وماذا تظن أننى سأفعل.. هل أموت؟ هل تظن أننى سألقى بنفسى فى البحر من بعدك؟ هل انتحر؟ أنت مغرور يا أستاذ! أننى سأحزن يوما أو يومين ثم أعاود الحياة من جديد!.. فيقول لها: إن هذا الأمر لا يعنينى، لقد كانت لك حياة قبلى ومن الممكن أن تكون لك حياة بعدى.. اذهبى.. وقولى كلامك هذا لانسان آخر.. لقد قلت هذا الكلام لكثيرين قبلى.. وتستطيعين أن تقوليه لآخرين من بعدى! اذهبى!

وأخذ يتخيل نفسه وهو يُقفل الباب وراءه فى وجهها. وهى تشد الباب وتبكى وتتعلق بملابسه.. ولكنه يرفض أن يعود وأن ينظر إليها.. ثم أخذ يتخيل أنه أصبح خفيف الحركة وأن صدره قد امتلأ بالهواء وأنه كالطائر يريد أن ينطلق فى الفضاء، فإن الأرض أصبحت تضيق به..

ولم يكد ينتهى من تخيلاته هذه حتى وجد نفسه أمام بيتها.. ووقف أمام الباب وتذكر أول يوم ذهب إليها.. وكان المطر شديدا، ولكنه لم يكن يحس بالبرد، وكان الليل هادئا، ولكن قلبه كان يدق كأنه الطبل فى غابة ساكنة..

وامتدت يده إلى الباب.. وبعد لحظات انفتح الباب ودخل.. وكانت بقميص النوم، وشعرها على كتفها وعينيها وصدرها.. ولم تنظر إليه وإنما تركته يدخل واتجهت هى إلى الحمام وقالت بصوت خفيض: انتظرنى لحظات!

وجلس فى مقعد فى حجرة نومها.. وأخذ يجيل النظر فيما حوله.. فلم يجد شيئا غريبا.. كل شىء كما تركه بالأمس.. المقاعد والسرير.. والعطر والعرق وطفاية السجائر.. وأحس أن الأماكن التى لا تتغير هى المتاحف.. فكل شىء فيها كما كان منذ مئات السنين.. وأحس أن هذه الفتاة هى الأخرى يجب أن تنتقل إلى المتحف. إن الشيخوخة قد بدأت تظهر فى وجهها وفى شعرها وفى شفتيها.. ولاحظ أنها عندما تسير تنحنى إلى

الأمام.. لقد تقدمت بها السن.. وصوتها ورائحتها.. كل ذلك لا يمكن أن يطيقه بعد ذلك.. هذا مستحيل!.

ونهض من مكانه وراح يعبث فى أدراج دولاب صغير، فوجد أوراقا قديمة وخطابات من أصدقاء قدماء لها.. إذن كان لها أصدقاء.. ويقرأ فى هذه الخطابات.. فهذا يقول لها! كانت ليلة رائعة.. هل تذكرين؟.. موسيقى وخمر وأنت، والعالم كله لا يرانا ولا يسمعنا.. إننى أكره ألا يسمعنى أحد وألا يرانى أحد.. ولكن معك أكره أن يرانى أى إنسان أو يسمعنى أى إنسان!..

إذن هذا حب عنيف.. ويقرأ فى خطاب آخر من ست ورقات. يقرأ هذه العبارة: «لقد كنت سعيدا عندما قلت لى: إننى أحبك.. آه إننى أتمنى أن أصدقك.. أتمنى أن أصدق هذه العبارة، وأن أصدق أنك لم تقوليها لأحد من قبلى.. وأن يكون هذا الفم لم تنفرج شفتاه لأحد قبلى.. وهذا الصدر وهذا الشعر.. آه ليتنى ولدت معك فى يوم وفى مكان واحد.. لأكون أول من يراك وأول من يلمسك بيده وفمه وفكره.. ليتنى أستطيع أن أصدقك!».

إنه أحمق هو الآخر.. إنها ضحكت عليه.. ويريد أن يصدق أنها لم تضحك عليه.

واعتصر الخطابات فى يده.. وعاد يقرأها من جديد.. إنهم أصدقاء قدماء تعود إليهم إذا خانها الأصدقاء الجدد.. إنها حكيمة وحريصة كذلك.

ثم عاد إلى مكانه من المقعد.. وعادت هى بقميصها الذى تعلق على أحد كتفيها بشريط رفيع.. ونظرت إليه نظرة عابرة ولم تسأله عن حاله، فهى تعرف هذا الوجوم وهذا الحزن الذى يعتريه فى الأيام الأخيرة.. لم تسأله، وطلبت إليه أن يقدم لها سيجارة.. وأخرج علبة السجائر وقبل أن يضع السيجارة فى فمها وجد شفتيها منفرجتين ورأى أسنانها البيضاء تلمع من وراء شفتيها الباهتتين.. وتأملها بسرعة.. ولكنه لم يجدها شاحبة

ولا عجوزا ولم يجد ذراعيها من عظم وجلد ولا صدرها من قماش ولا ساقيها من خشب.. ورأى كتفها العارية الناعمة المستديرة.. وأحس أنه غارق فى عرقها وعطرها.. إنها ليست عجوزا..

ودق جرس التليفون.. وكان صوته كالسكين الذى حطم خيوطا رقيقة من أفكاره التى كان ينسجها حول هذه الفتاة.. ونظر إليها وهى تنثنى ولا تحاول أن تسوى قميصها وسمعها وهى تقول: «ألو.. أنا كنت أنتظر هذه المكالمة منذ الصباح. ماذا حدث؟»

ولم يسمع بقية حديثها.. وراح يفكر أنها تنتظرها منذ الصباح.. لابد أنه صديق قديم.. وتمنى لو ينهض ويمسك سكينا يقطع به حبل التليفون.. يقطعه حتى لا تكمل حديثها معه.. ولكن هل يؤدى ذلك إلى إنهاء العلاقة بينها وبين هذا الصديق القديم، فهناك حبال أخرى غير حبال التليفون.. حبال أخرى غير منظورة.. هنالك صلات وعلاقات!

ولكن لماذا يقطع التليفون؟.. لماذا يمنعها من الحديث مع الآخرين.. لماذا؟

وراح يتذكر يوم تشاجر معها وقالت له: بأى حق تمنعنى؟ من الذى أعطاك هذه السلطة؟ تمنعنى من الخروج ومن زيارة صديقاتى القديمات؟ بأى حق؟.. من أنت؟ ثم من أنا بالنسبة لك؟ هل أنا صديقتك.. هل أنا عشيقتك.. هل أنا خطيبتك.. هل أنا زوجتك؟ بأى حق؟ وأنا أستطيع أن أفعل ما أشاء وفى أى وقت وعلى النحو الذى أريد.. وإذا لم أخرج ولم أذهب إلى صديقاتى فليس خوفا منك.. إننى لا أخاف أحدا.. ولكن لأننى ما أزال احترمك ولا أزال حريصة على ألا تكون أضحوكة بين الناس. وعلى ألا تكون كاللبانة فى أفواههم ليمضغوها ثم يدوسوها بأرجلهم إننى لا أخافك ولكن احترمك فقط.. وإذا كانت لك حقوق عندى فأنا الذى أعطيتك هذه الحقوق! لابد أن تفهم ذلك!.

ولكنه حاول أن يفهم ذلك، فلم يفلح.. وبعد أن رأى الخطابات وسمع المحادثة التليفونية.. أدرك أن قوتها مصدرها أن لها أصدقاء آخرين، وأنه ليس الوحيد فى حياتها فهنالك من يكتب لها ومن يتحدث معها.. ولابد أنها قالت إنها هى التى منحتهم هذه الحقوق.. ولعلها لم تقل ذلك لأحد قبله، وإنما قالته له هو.. فهو إذن لا حق له فى أن يسألها ولا فى أن يمنعها.. إنه لا شيء بالنسبة لها.. لقد أدرك ذلك، ولهذا جاء ينهى هذه العلاقة.. مع تلك العجوز الدميمة.. ولكنه ينظر إليها وهى تتحدث وعيناها تلمعان فلا يجد فيها ذلك القبح ولا تلك الدمامة.. ولكنه يجد قواما فارعا وجسما بضا وشبابا متدفقا..

وانتهت المكالمة التليفونية .. ونظرت إليه وقالت: سأحضر القهوة حالا.

وعادت بالقهوة، وراحت تصبها فى الأقداح دون أن تنظر إليه ودون أن تسأله عن حاله.. ومد يده إليها.. فظنت أنه يريد أن يصب القهوة، ولكن كم كانت دهشتها حين وجدته يقبل يدها.. وكانت دهشتها عابرة.. ولكنه ضحك ضحكة عالية.. وسألته عما به.. فقال: إننى أضحك.

وقالت: أنا أعلم، ولا أدهش لحالاتك الغريبة، ولكن لماذا؟

لقد تذكرت أن رجلا كان يقف على شاطئ البحر.. فوجد سيدة تغرق.. فانطلق يسبح نحوها، ولما قرب منها كانت السيدة قد غرقت ولم يظهر من جسمها سوى ذراعها.. ولكن الرجل لم يسارع إلى إنقاذها وإنما انحنى على يدها يقبلها.

فقالت: لم أفهم.. هل تريد أن تقول إننى غارقة وإننى مددت يدى لك.. وقبلتها بدلا من أن تأخذ بها؟

وهل أنا غارقة.. من قال لك.. هل طلبت منك شيئا هل طلبت منك مالا؟ إننى أحببتك لسبب لا تعرفه أنت ولكنه على أى حال سبب تافه وهو سبب قد لا يعجب الكثير من النساء.. إنه تافه.

ودار رأسه وأحس أنه جرحها بهذه العبارة.. وأدرك أنهـا إذا ثـارت فلا نهاية لثورتها.. وأنها كالبركان الذى يطلق الدخان والنار فيهدم القـرى ويهلك الناس.. ولكنه أدرك أن نظراتها هذه المرة لم تكن مـألوفة.. لابـد أنها تعنى كل ما تقول.. أنها هذه المرة جادة.. ولابد أن فى حياتها شـيئا جديدا لا يعرفه.

وجمع قواه وراح يبتلع ريقه، واتجه إليها فقالت له: أنا أعرف ماذا تريد أن تقول.. أنت تريد أن تسألنى عن حبى لك.. إنه سبب تافه.. إننى أحبك لسبب تافه.. أنت محبوب لسبب تافه.. جدا.

ونهض من مكانه وصفعها بعنف.. وسقط فنجان القهوة على قميصـها، وصرخت واحمر وجهها وتساقطت دموعها. وانطلق إلى الباب ولم يسـمعها وهى تقول باكية: لسبب تافه.. لأنك تغار على.. إننى لم أجد واحدا يغـار على.. كلهم لا يعنيهم من أمرى شىء إنهـم لا يسـألوننى عـن أيـامى الماضية، ولا عن حاضرى، ولا عن مستقبلى. لا أحد يسألنى كيف أكلـت، كيف شربت، كيف نمت.. إننى أحبك لأنك غيور أبله.. لأنك فلاح.

.. وأقفل الباب وراءه ومضى إلى الطريق يفكر فيما حـدث. لقـد جـاء يتخلص منها.. جاء ليعلن لها إنه لن يعود إليها.. إنه تعب منها.. إنه كره نظراتها إليه. كرهها وهى تقبل عليه، وكرهها وهى تدبر عنه.. ذهب ليحرق كل أيامه معها.. وكل فكرة وكل أمل.. إنه يريد الخلاص منها ولكنه سـقط فيها، كما تسقط الذبابة فى العسل.. إنها تحب العسل، ولكن حين تريد أن تتخلص منه فإنها لا تستطيع. إنه يمسك برجليها ورأسها وجناحيها.. إنها تموت أحلى وأمر موتة.. الموت مر ولكنه فى كفن من عسل.

وهو الآخر لقد سقط فى العسل، ولكن هذا العسل تجتاحه موجات مـن الصمغ.. هذا الصمغ هو: الغيرة.

إنه غيور.. أبله..

حتى يرزقها الله بابن الحلال

الفتاة الأوربية تنظر إلى الزواج على أنه بداية الاستقرار فى حياتها، لانها قد رقصت وشربت وعرفت عشرات الاصدقاء وانتهت بها الصداقات إلى هذا الزوج الذى عرفته فأحبته.. ثم تزوجته.

وحين تتزوج الفتاة الأوروبية فلا صداقة الا لزوجها، ولا ترقص الا معه ولا تشرب الا امامه، ولا تخرج الا باذنه..

والمثل المصرى يقول: انها «حلة» راحت تدور وتدور ثم وجدت غطاءها!

والفتاة المصرية، يا عينى عليها!

لا تخرج قبل الزواج ولا ترقص ولا تشرب ولا تذهب إلى السينما الا تحت حراسة شديدة كأنها مجرم أو كأنها كلب من الكلاب. وإذا طلع عليها الليل وهى فى الطريق إلى البيت فأمها تقف فى الشباك، وأبوها يقف بالباب، وأخوها يسن السكين.. والجيران ينظرون من الشيش.. وفضيحة وصراخ.. ويا ويلها ويا سواد ليلها.. تأخرت حتى الساعة الثامنة.. وعشرين دقيقة وثلاثين ثانية بتوقيت العائلة.

ويحتويها السرير فتبكى حريتها وتعاستها وتصلى لله أن يرزقها بابن الحلال الذى يجعلها تخرج وترقص وتشرب وتسير وتلبس وتقلع كما تشاء. ذلك الذى يضع ذراعه فى ذراعها ويسير إلى جوارها إلى كل مكان.. إلى نهاية العالم!

ولكن كيف يرزقها الله بابن الحلال؟

وأمها تقول ان الرجال: أولاد حرام!

. وأبوها يقول: بل مجرمون!

وأخوها يقول: بل كلاب!

وهى تنظر اليهم وتقول: بل أنانيون! -

كيف يرزقها الله.. ان السماء لا تمطر رجالا ولا شبابا ولا أصدقاء ولا أزواجا.. فالرجال والشبان والاصدقاء وأزواج المستقبل فى الطريق.. وفى الحدائق المقفلة، وفى المطاعم الممنوعة، وفى السينما المظلمة، وفى التليفون، وفى المدرسة، وفى الجامعة!

ماذا تصنع الفتاة..

لا شىء الا الحسرة والندم.

ولكن أى انسان أرحم من أبيها، وأرق من أخيها وألطف من أمها. إن أى صديق هو خير من هؤلاء جميعا.. انه الذى يفتح لها أبواب الحياة.. العشاء كل يوم، والتنزه فى أية حديقة، والغذاء على النيل، والعودة إلى البيت فى ساعة متأخرة.

أين هذا الصديق؟ أين هذا الزوج الذى سيجعلها تضحك ملء صدرها، وتأكل ملء معدتها، وتنام ملء جفنها؟

ان الحرية التى حرمتها فى بيت أبيها ستنالها فى بيت زوجها.. فالحياة الزوجية حرية لم تنعم بها.

فالفتاة المصرية المحافظة، ترى ان الحياة الزوجية هى بداية الحرية والمرح والسعادة، انها فرار من دعاء الاب، وندم الام، وصراخ الاخ وشماتة الجيران، ولسان الخالات والعمات!

والفتاة الأوربية تتزوج، فتكون زوجة هادئة ترعى بيتها، وترعى زوجها، وتنتظر ولدها، وتحسب ملاليمها وقروشها، وتتطلع إلى مستقبلها.

وتصبح الزوجة أما لكل شىء فى البيت، أما لزوجها، وأما لاولادها، وأما للمقاعد والسرير والدولاب.. انها تحتضن كل شىء، كما تحتضن الفرخة صغارها.

ولا شىء يولد من غير حضانة.. فالحضانة تلد الهدوء والراحة والسعادة.

والفتاة المصرية تتزوج، بعد معرفة قصيرة بزوجها، أو بلا معرفة، أو تتزوجه سماعا من أمها أو من خالتها.. وتتزوج فترى رجلا غير أخيها، وشابا غير أبيها، وصديقا غير ابن خالتها، ولكنه على كل حال أحسن منهم جميعا.. انه فتى أحلامها.. انه رضوان الذى يحمل مفاتيح الجنة، انه علاء الدين الذى يمسك مصباحه فى يده اليمنى ويضع خاتم سليمان فى يده اليسرى.. انه كل شىء لها.. أنه فريد الاطرش وإسماعيل يس وطه حسين ومدير البنك الأهلى.

وتمضى الايام فإذا هو كأى فريد وكأى إسماعيل وكأى طه وكأى موظف فى البنك الأهلى.. وإذا الخروج بحساب والدخول بحساب والكلام بحساب، وصوته يشبه صوت أخيها وكلامه يشبه كلام خالتها، وبخله يشبه بخل أمها، والشخط والنطر كأنها خادمة.. وهو قرفان إذا دخل، زهقان إذا خرج، مسدود النفس إذا أطل..

وإذا هى تحس أنها فى حالة «حبس انفرادى» بعد أن كانت سجينة مع أمها وخادمتها وخالتها وأختها الصغيرة..

وهذه هى الصدمة الأولى فى حياة الفتاة المصرية، والحقيقة الأولى فى حياة الفتاة الأوروبية!

ويتاح للفتاة الأوروبية أن تعرف الدنيا قبل الزواج، تعرف الرجال وتراهم وتسمع بهم عن قرب وعن بعد تجالسهم وتناقشهم وتصدقهم وتكذبهم، تراهم إذا ضحكوا وإذا بكو وإذا شربوا وإذا أفاقوا. فليس الرجل حيوانا شاذا، له أنياب وله ذيل وله قرون.. بل هو انسان مثلها، له أوهامه وغروره وقوته وضعفه..

فإذا تزوجته، فقد عرفته صديقا قبل ذلك، وتزوجته لأنه عرفها وعرفته وأحبها وأحبته، واتفقا على شىء على هذه الشركة الانسانية.

أما عند الفتاة المصرية.. فالرجل «بعبع» أنه وحش انطلق من حديقة الحيوان، إذا ظهر فى النهار، فإنه يخفى أظفاره فى كمه، وذيله فى جيبه وأنيابه تحت لسانه.. وإذا ظهر فى الليل، فالنار فى عينيه، والدم فى وجهه، والشر فى رأسه.. انه وحش ومصاص الدماء، يأكل القلوب ويغرر بالفتيات.. من الذى ضحك على سعاد بنت عبد الفتاح أفندى ونهاد بنت عبد الوهاب أفندى.. ومسكينة فتحية بنت أم زكى.. من الذى ضحك على هؤلاء، انهم الرجال انهم الشبان!

إذن الرجال وحوش، لا يجب رؤيتهم ولا مخالطتهم ولا مجالستهم ولا النظر إليهم.. مع أن من هؤلاء الرجال، أباها وأخاها وخالها وعمها وخادمها.. ولكنهم مع ذلك وحوش.. فلا اختلاط بين الرجل والمرأة فى أى مكان لا فى المدرسة ولا فى الجامعة ولا فى الترام ولا فى الاوهام ولا فى الأحلام!

ثم يخطبها شاب.. وتعرفه وتحبه وتحلم بأنه لو سجنها فى قفص وألقى لها بالطعام كما يلقى للكلاب فذلك خير من أبيها وأخيها.. وجحيم أى زوج خير من نعيم أى أب وأى أخ وأى أم.. وضربات زوجها أرحم من لسان أمها وصرخات أبيها، ونحنحة أخيها.

وهل معقول أن يكون كواحد منهم.. مستحيل.

فحديثه لا ينتهى، وضحكه لا يفرغ، فعنده آخر خبر، وآخر نكتة، وأحدث فكرة.. كل شىء جديد.. كل يوم وكل وقت!

وتنقل إلى بيتها أو إلى بيت زوجها وتتبخر أحلامها وأوهامها، وتجد نفسها وجها لوجه مع الحلل والأطباق والشباشب والبيجامة الملقاة على الأرض ورائحة العرق وصابون الحلاقة، وبقايا جبنة وعيش وفول مدمس..

وتقول لنفسها. لم أكن أظنه كذلك.

طبعا لأنك لم تعرفيه!

وتقول لنفسها: أين الورود وأين العطر ولمعان أسنانه، ورائحة شعره وابتسامته الدائمة وصوته الحنون، وحديثه البارع، وقبلة الصباح، وعناق المساء.. أين هذا؟

طبعا لا شىء من ذلك لأنك لم تعرفيه، ولم تفهمى الحياة الواقعية، وإنما تعيشين فى حراسة أبيك.. وبخور أمك وتهديدات أخيك..!

وتقول لنفسها: ماله قرفان.. هل هو مريض؟ أبدا! هل هو متزوج من سيدة أخرى؟ أبدا.

إذن، ماذا..؟

انه هكذا.. أن المرأة تنظر للزواج على أنه غاية الغايات، أما الرجل فينظر إلى الزواج على أنه مرحلة من مراحل الكفاح فى حياته، ومحطة يستريح فيها ليواصل عمله وجهاده من أجل أسرته وزوجته وأولاده.. إذا

شخط فيه الرئيس، نظر إلى زوجته، فسكت وإذا تلهفت نفسه على الشراب أو الحلوى تذكر زوجته فيبتلع لسانه، ويخفى نقوده فى جيبه..

وليست الحياة كلها شهر عسل بل هو شهر من شهور الحياة العادية التى كلها عمل وتعب وفكر وشقاء.. ولكن الفتاة المصرية لا تعرف شيئا من ذلك، لم يقل لها أحد عن ذلك لا أمها ولا صديقاتها المحرومات مثلها ولم تجرب بنفسها ولم تعرف رجلا ولا صديقا لا عن قرب ولا عن بعد.

وهذه الصدمة الثانية فى حياتها، والحقيقة الثانية، فى حياة الفتاة الأوروبية!

وتسكت فتاتنا المصرية على مضض وعلى مرارة.. ولكن كل مرارة لها حدود، وكل صبر له نهاية.. فكل الناس تضحك إلا زوجها، وتخرج إلا هى. ماذا أصابها.. انه بختها وقسمتها دون سائر الناس انها مسألة نصيب، ونصيبك يصيبك كما يقول المثل!

ياليتها سمعت كلام أمها ونصائح أخيها، ودعوات أبيها!

ولكن «ياليت» لا تعمر البيت، كما يقولون!

انه يتركها ساعات، وساعات وحدها فى البيت، انه يتركها وحدها وهو جالس معها، فلا يكلمها ولا يحدثها فتسكت هى الأخرى..

والزوجة الوحيدة الممرورة ماذا تصنع.. أنها تتطلع إلى الآخرين السعداء الهانئين، ويجتذبها الآخرون فتطيل النظر إليهم والسمع إليهم، وتقول فى نفسها: يا بختهم..!

وكثيرا ما تتفضل الزوجة الوحيدة معهم أو معهن.. والزوج لا يدرى!

وعند الاغريق قصة قديمة.. هى قصة الزوجة التى تركها زوجها عشر سنوات.. وقال الناس أن زوجها مات ويجب أن تتزوج فهى ماتزال شابة

وجميلة ولكن الزوجة رفضت أن تتزوج لان زوجها حى . فراحوا يقيمون فى بيتها يأكلون ويشربون ويرقصون، ويعرضون عليها مفاتنهم ولباقتهم وقوتهم وثروتهم وشبابهم. ولكن الزوجة صابرة ثابتة علـى حبهـا لـزوجها الأول، وبدأت الزوجة تضعف أمام الاغراء فقالت أنها إذا فرغت من النسيج الذى تعمله ستقرر من الذى تختاره منهم.. وكانت تهدم بالليل ما تعمله بالنهار.

فضاقوا بها.. ولكن الزوج عاد لها بعد عشر سنوات..

ويقول الاغريق انها رمز الحب والصبر والوفاء!

والفتاة المصرية مطالبة أن تكون صابرة مؤمنة كهـذه السـيدة التـى تحدثت عنها الأساطير الاغريقية. أن تكون طاهرة صابرة إذا تركها زوجها فى البيت يوما أو شهورا أو سنين، ترى الناس فتغمض عينيها، وتسمع عن سعادتهم فتسد أذنيها، وتحطم خيالها وأوهامها..!

ولكن المؤرخين الاغريق قالوا ان هذه السيدة الاغريقية لم تكن طاهرة بل كانت فاجرة داعرة.. لقد استمتعت وشربـت ورقصـت عشر سـنوات وأنجبت ولدا أطلقت عليه اسم «الجميع» لانه ابن عشرات الرجال!

حتى هذه السيدة الخرافية لم تكن هى الأخرى طاهرة صابرة، حيـن تركها زوجها عشر سنوات!

واسم هذه السيدة هو «بنيلوب» وهى ليست وحيدة بين نساء البشر، بل أنت تعرف مثلها الملايين كل يوم يقفن على أبـواب المحـاكم يـطالبن بالطلاق والتحرر من الحياة الزوجية التى بنيت فى الاوهام فحطمها الواقع!

غرام فى التليفون

كانت تقول: اننى لا أستطيع أن أعيش من غير خيال وأحلام.. فالخيالات والأحلام تملأ الفراغ الذى يحيط حياتى، وتقضى على الحرمان الذى أعانيه.. فأنا لا أخرج من البيت، وإنما أسمع بالعالم، وأرى صوره، وأقرأ ما يكتبه الناس عنه.. فأجلس وحدى وأتخيل، وأنام وحدى وأحلم.. فأنا أتصور كل شىء لا أجده فى يدى، ولا أسمع به فى أذنى، ولا أذوقه على لسانى. والله قد خلق الانسان على صورته.. فنحن صورة من الله.. والله خالق كل شىء، والانسان هو الآخر يحاول أن يخلق وأن يبدع.. وكل انسان اله فى أحلامه وخياله!

وكانت تقول: اننى أتخيل كل شىء على النحو الذى أريده وفى الوقت الذى أريده.. اننى من أسرة محافظة.. بينها وبين العالم الخارجى أبواب كثيرة مغلقة، وعيون كثيرة ساهرة، وشيخوخة أبى ومرض أمى، وجهلى بالحياة وخوفى من الناس.

وكانت تقول: إن الحيوانات هى وحدها لا تستطيع أن تطير فى الهواء.. ولكن الطيور ترتفع فى الفضاء وتحلق فى السماء.. وذلك لأن لها ريشا طويلا، وكلما طال الريش سهل عليها الطيران.. والانسان يجب أن يكون له ريش،

وأن يكون هذا الريش طويلا.. هذا الريش هو الخيـال.. فـأنا أعيش فى خيالى، وأضع ريشا طويلا ملونا يحملنى إلى كل سماء وكل ماء وكل هواء!

هذه هى الفتاة!

أما الفتى فكان أقصر ريشا، وأكثر واقعية، وكانت تحمله كمـا يحمـل النسر طفلا صغيرا.. كانت تتعب معه، وكان يتعب هو معها، هى تـريد أن تعلو به إلى السماء، أما هو فيريد أن يلصقها بالأرض، تسير على قدميها على طين ورمل وصخر وعشب.. ولكنه كان يعيش فى أحلامها، وينـطلق فى خيالها ويقبلها ويعانقها ويقول لها: إننى أحبك!

وكان ذلك كله فى التليفون.. فهو لم يرها، وهى لم تره.. لقد سمع صوتها مرة، فالتصقت اذنه بالتليفون.. وظل يحدثها ويستمع إليها ساعات وأيـاما وشهورا.. دون أن يراها ودون أن تراه..

لقد سمعها وهى تضحك، وسمعها وهى تبكى، وسمعها نائمة، وسـمعها حالمة.. وكانت أنفاسها متقاربة، ينقلها سلك لعين.. فهـى فى مـكان مـن القاهرة لا يعرفه، وهو فى مكان لا تعرفه..

ولكنه يعرف شيئا واحدا يتكرر كل ليلة.. يدق جـرس التليفـون عنـد منتصف الليل.. ويرفع السماعة دون أن يقول: آلو. لأنه يعرف من المتكلم ويضع السماعة على أذنه حتى مطلع الفجر من كل يوم.. ويسـألها مـاذا صنعت طول اليوم.. ويحكى لها ماذا صنع هو الآخر.. كيف خرج من بيته إلى شارع سليمان باشا.. وكيف وقف يشرب القهوة ويتطلع إلى الفتيـات رائحات غاديات.. سيقان لامعة وصدور عالية، وأعناق مرتعدة.. وكيف أنـه كلما رأى فتاة جميلة انطلقت من فمه آهة توارت فى دخان القهوة.. وكيف أن سيدة عجوزا اندفعت فى مشيتها فأوقعت القهوة على ملابسه.. واعتذرت ومضت.. وكيف أنه تمنى لو كانت تلك العجوز فتاة جميلة ليتها كانت فتاة جميلة.. وتسأله لماذا؟ فيقول لها: لماذا؟ لو كانت فتاة لقلت لهـا.. هـذه

بشرة خير.. سيكون لديك ثوب جديد، أو عريس ابن حلال.. أو حظ سعيد هذا الأسبوع.

وتسأله الفتاة: صحيح؟.

فيرد عليها: انني أضحك!

وكانت تغار عليه، وكان يغار عليها.. وكان لا يؤذى احساسها، وكانت هى كذلك.. وهو لم يرها وهى لم تره.. ومضت على علاقتهما ستة شهور.. ومئات الساعات قضياها فى همس وآهات وبكاء وضحك فى ظلال الليل عبر أسلاك خرساء أمينة!

وكانت إذا نزلت إلى القاهرة.. اتجهت إلى أى محل أو أى أجزاخانة واتصلت به تليفونيا: اننى أتحدث إليك من شارع فؤاد.. هل تعرف لماذا؟.

- فيقول: لها لماذا؟

ـ لقد رأيت شابا يشبهك تماما!

ـ وكيف عرفت أنه يشبهنى؟

ـ انه يخلق من الشبه أربعين..

ـ أيوه.. ولكن لابد أن تعرف ملامحي لكي تعرف من الذى يشبهنى ومن الذى لا يشبهنى!

ـ انه خيال.. خيال!

ـ آه.. لقد نسيت!

وفى ساعات النهار الصغيرة.. والدنيا هادئة، والليل ستار قائم على النائمين والساهرين والمحبين والحاقدين والسعداء والتعساء، ومن ينامون

فرادى، ومن ينامون معا.. تسأله : إننى أريد.. أريد أن أحس أنك معـــى.. أنك على قيد مليمترات منى.. أريدك معى هنا إلى جــوارى.. هــل أنــت جالس أم نائم.. هل تضع يدك اليمنى على خدك الأيسر.. هل قلبك يدق.. هل أنت مفتوح العينين؟

.. وتقوله له : إننى أحس أنفاسك أحس بها على وجهى عند شــفتى.. وأحس أصابعك فى شعرى، وذراعك حول خصرى.. أنك تضغط على جسمى ضغطا عنيفا.. هل أنت قاس هكذا مع كل الفتيات؟

وكل يوم تضع ريشا فى أجنحتها وتطير بعيدا.. عن بيتها.. إلى شواطئ النيل.. حيث تنام على الشاطئ عارية.. وإلى ظلال الأهرام حيث تتمــرغ على الرمل والبحر عارية، والانسان لا يكون سعيدا إلا إذا كان عاريا مــرة واحدة.. يتعرى من مبادئه ومن تقاليده ومن دينه ولو مرة واحــدة.. ليحس بالحياة مرة واحدة..

وطال الريش وطال الجناحان وانتقلا عبر أسلاك التليفــون وفى ظـلام الليل، وعلى أمواج الحرمان الحارة.. إلى أوروبا.. إلى كابرى.. إلى جزيرة المحبين.. ونزلا إلى شواطئها الصغيرة وسبحا فى مياهها الفائرة، ودخـلا المغارة الزرقاء وكاد الزورق يغرق بهما، ولـكنهما فضـلا الغــرق وهمـا يتعانقان.. أن يموتا معا فى المغارة الزرقاء بكابرى.. وخرجا مــن المغـارة وصعدا إلى جبال كابرى، ونزلا فى وديانها وزجاجات النبيذ فى سلة حملتها الفتاة على رأسها.. حملتها وهى حافية القــدمين، وتلبس مــايوها مــن قطعتين.. وجلسا على الصخور.. وأخذ يحطم التفاح بيديه وأسنانه ويشرب النبيذ، ويطفئ لهيبه بقبلات طويلة.. ومن الذى هبطت قدماه أرض كابرى ولم يسجل اسمه بشفتيه على خدود جميلة!

وينتقلان من كابرى إلى فيينا.

فإلى هناك..

المدينة جميلة هادئة نهارا فاتنة ليلا.. الموسيقى والبيرة والشقراوات والابتسامات فى كل مكان.. ويدخلان معا «بار يوسف» أشهر بارات فيينا بشارع الامبراطورة (ماريا تريزا). ويجلسان على المقاعد الخشبية، وتقدم لهما أكواب البيرة، ويشربان نخب الحب والصحة، وتمسكه الفتاة من عنقه صارخة: لا تنظر إلى أية فتاة وإلا سكبت البيرة فوق رأسك! أنت فاهم؟..

إذن لابد أن يتركا مدينة فيينا.. فهى مليئة بفتيات شقراوات صناعتهن الابتسامات والانحناء واكرام الضيوف!

فهيا إلى القاهرة.. ويعودان إلى القاهرة.. وينقلب فى فراشه، وتعتدل هى فى فراشها وتقول له بصوت مبحوح فاتن إننى أحبك! وأنت هل تحبنى؟

ويتدخل عامل التليفون قائلا: نمرة (...) هنالك مكالمة أخرى! تكلمى من فضلك.

وكثير ما طلبت إليه أن يعود إلى بيته فى ساعة مبكرة من النهار أو من الليل.. وتطلب إليه أن يفتح الراديو وتقول له. أنه برنامج ما يطلبه المستمعون.. فالأغنية الأولى لى أنا.. انها تعبر عن حالى معك.. هل أنت موافق..؟

فيقول: موافق!

ويبدأ برنامج ما يطلبه المستمعون بأغنية لعبد الوهاب أغنية أحبك وأنت فاكرنى، وأحبك وانت ناسينى..

وتقضى الليلة كلها سعيدة.. ولكنها تعود فتسأله: وهل أنت كذلك؟ هل أنت تحبنى كما تقول الأغنية..؟ فيقول لها: أيوه.

وكثيرا ما غنت أم كلثوم: رق الحبيب وواعدنى.. وكثيرا ما كان من نصيبها أن تغنى أم كلثوم يا ظالمنى يا هاجرنى.

وكان من نصيبها أيضا أن يغنى عبد الوهاب: قلبى بيقول لى كلام وأنت بتقول لى كلام وعنيه شايفه كلام والناس بيقولوا كلام..!

ويتشاجران على أغانى عبد الوهاب وأغانى أم كلثوم.. وكيف أن الأغانى تنطبق عليه هو وليس عليها هى.. وأنه هو الظالم الهارج، وأنه يقول كلاما وأن الناس تقول كلاما آخر.

ولكن هذا الشجار يتوارى فى ضباب الأحلام والأوهام والعناق..!

وفى يوم طلب إليها أن يراها.. وصرخت قائلة:

- اننى سأتحول إلى طائر بلا ريش.. سأصبح دجاجة أعيش على الأرض.. أننى سأنزل من عالم الخيال، إلى عالم الواقع.. أريد أن أظل هكذا..

وكان يقول لها أن كل طائر يطير ويعود إلى الأرض.. ولم يوجد طائر واحد يظل هكذا طائرا فى الهواء.. يأكل ويشرب وينام ويتوالد فى الهواء دون أن يعرف الأرض.. يجب أن تعودى إلى الأرض لتستريحى وتعاودى الطيران من جديد.. عودى إلى الأرض.. اتركى هذا الريش لحظات.. فإذا صدمك الواقع، فاهربى إلى الخيال، وإذا أعجبك الواقع فأقلعى عن الخيال..!

ووافقت.. على أن يكون ذلك اللقاء فى إحدى دور السينما.. وترك لها عند الباب تذكرة لها، وكان فى نيته أن يذهب وحده ليراها وحده.. ولكن تشبثت به أخته الصغيرة إذن سيذهب إلى السينما ومعه أخته.. أخته إلى اليمين وفتاته إلى اليسار.. هذا هو العذاب بعينه..!

هذا هو العذاب.. أن يجلس إلى جوار فتاة كان يتحدث إليها شهورا ولم يرها. ثم يريد أن ينظر إليها، أن يلمس يدها، ولكن كيف وأخته إلى جواره، كيف.؟

لقد حكمت آلهة اليونان على رجل بأن يوضع فى بحيرة من الماء، وكان الماء يرتفع حتى يبلغ عنقه، وكان ينحنى على الماء ليروى ظمأه.. فينحسر الماء، ويظل هكذا ظمآن والماء حوله. كلما حاول أن يشرب، هرب منه الماء، وكلما اعتدل فى وقفته صعد إليه الماء.. فهذا هو العذاب..

وجلسا فى السينما متجاورين.. ولم ينطق واحد منهما بكلمة.. وإنما اتجها إلى الشاشة.. فهو لا يرى شيئا وهى لا تسمع شيئا.. والكلمات على شفتيه تظهر وتختفى وأصابعه تتكلم، وقلبه يتمزق، ولكنه لم يتكلم!

وكان يرى ببعض عينه أن صدره يعلو ويهبط، وأصابعها تهدئ شعرها الثائر، وتمسح عرقها المتساقط، والمقعد قلق بها، ولكنها لم تلتفت إليه، وهو لم يلتفت إليها.. وكان يترامى على أنفه عطرها الهفهاف، رطبا حارا..!

أهذه هى.. انه لا يعرف!..

أهذا هو.. انها لا تعرف.. فمن يدرى، ربما يكون قد أرسل صديقا له بدلا منه، وربما تكون هى قد أرسلت صديقة لها بدلا منها.. أنه لا يعرفها، وهى لا تعرفه..

ولكن لابد أن تكون هى، ولابد أن يكون هو.. انها جاءت ترى الوجه الذى كانت تتملاه فى أحلامها، والشفتين اللتين قبلتهما، والشعر الذى غابت أصابعها فيه، والصدر الذى استراحت إليه.. هو يريد أن يرى سمرتها الصافية وذراعيها الناعمتين، وشعرها الفاحم، والصنمين اللذين تحملهما على صدرها، والذى ركع أمامهما طويلا..

ولكن قلقها وحيرتها، وصمته واضطرابه، لابد أن تكون هى، وأن يكون هو..

وطالت بهما اللحظات.. واتجها إلى الشاشة.. وأفاقا عندما تقدم أحد أبطال الفيلم من البطلة ثم هجم عليها وقبلها فى فمها، فصفعته فضحك قائلا: اننى أكره الانتظار. أن الرجل يجب ألا يطلب شيئا من المرأة، بل يجب أن يغتصب منها كل شيء.

فردت عليه قائلة: ولكن المرأة لديها جواب حاضر.. هو أن تصفعه..!

فقال: اننى أقبل اليد التى تصفعنى إذا كانت يد امرأة جميلة..!

فما كان من البطلة إلا أن هجمت عليه وقبلته بحرارة دامية!

وتحرك الفتى فى مقعده، وتحركت هى فى مقعدها فى آن واحد.. وكادت أخته أن تلحظ شيئا، ولكنها لم تلبث أن اتجهت إلى الشاشة واستغرقتها قبلات الرجال والنساء..

وعادا ينظران إلى الشاشه.. ودخل البطل بيت حبيبته فوجدها ترقص وتحمل فساتينها وتضعها الواحد بعد الآخر على جسدها العارى أمام المرآة، ثم تتطلع إلى كتفيها الجميلتين وتقبلهما، فقال لها: ماذا تفعل السيدة الموقرة؟

فقالت فى دهشة: الموقرة؟ وهل ترك الحب وقارا لأحد؟ أن الحب يكره الوقار.. لأن الحب طفل صغير. أن «كيوبيد» آله الحب طفل يلهو ويلعب ولا يكبر أبدا.. انه يعيش مع الذين يرقصون ويغنون وينام فى سريره.. وما سريره إلا قلبى وقلبك.. هل تعرف المبدأ الذى يعيش عليه الحب؟

فقال: أريد أن أتعلم منك..!

فقالت: أن تبدأ دائما.. ابدأ بالكلام، مد يدك إلى المرأة، وقابلها فى منتصف الطريق، ومد إليها فمك وعنقك وقلبك..

وكادت يده تتحرك، وكاد فمه يمتد، وكاد قلبه يقفز. فالحب أن تبدأ دائما.. ولكن كيف يبدأ، وكيف تبدأ هى..؟

وانتهى الفيلم وأضيئت الأنوار، ورفع المنظار الغليظ عن عينيه، وحاول أن يراها. ولكن كانت الدنيا ضبابا أبيض أمامه، وأخذ يمسح عينيه، ولما فتح عينيه كانت الفتاة قد خرجت، وابتلعها الزحام. وراح يعصر عينيه، واختلطت الدموع والعرق على خده، وتردد فى أذنيه قول البطلة : أن مبدأ الحب هو أن تبدأ دائما! أن تبدأ أبدا، وأن تغتصب..!

آداب القرود

قرأت فى مجلة ايطالية أن احدى القردة بحديقة حيوان ميلانو قد تشاجرت مع زوجها وراحت تضربه حتى مات، وأضربت عن الطعام بعد ذلك، ولما أحضروا لها قردا آخر عادت لها حيويتها ونشاطها، وعادت الحياة الزوجية إلى مجراها الطبيعى، كما كانت قبل وفاة المرحوم زوجها!

وقد ضحكت عندما قرأت هذا النبأ، وحاولت أن أتخيل ما دار بين القرد وزوجته قبل هذا الحادث. فإذا كان هذا الذى تخيلته غير طبيعى أو دقيق، فذلك لأننى لم أفهم لغة القرود.

وعلى كل حال هذه محاولة:

جلست القردة إلى جوار زوجها القرد ثم التفتت إليه فجأة وقالت:

ـ ألاحظ أنك تغيرت هذه الأيام!

فقال: وكيف؟ هل أحببت سيدة أخرى؟

هى: لا أعرف!

هو: ولكن أنا أعرف.. أنا رجل عجوز.. فماذا تريد النساء منى.. لا شىء! وماذا أريد من النساء؟ لا شىء! هنالك فتيان من القرود، لهم

ذيول طويلة وأرجل قوية، وأكثر حركة ورشاقة.. وأعلى صوتا.. فأين أنا من هؤلاء..؟

هى: أنت تغيرت! لم تكن كذلك يوم عرفتك.. لقد كنت تقبل رجلى وإذا تعبت رجلى نهضت إلى يدى وقبلتهما.

هو: ومن قال لك اننى لا أريد أن أفعل ذلك الآن.. ولكن..

هى: ولكن ماذا؟

هو: كلما حاولت تقبيل يديك ضربتنى برجليك، وإذا حاولت تقبيل رجليك فيا ويلى من يديك! فماذا أصنع؟

هى: أنت لم تعد تصبر على تصرفاتى.. كلامى ثقيل عليك، ومداعبتى لك أصبحت تسميها ضربا.. أنا أعرف أنك تكرهنى.. لم تعد تحبنى.. والمثل يقول: حبيبك يمضغ لك الزلط (الحصى)، وعدوك يعد لك الغلط.. وأنا الآن عرفت عدوى وعرفت حبيبى. طبعا! طبعا! لم أعد الفتاة الأولى فى حياتك التى كنت تنام إلى جوارها مفتوح العينين.. تخشى أن يسرقها منك أحد وأنت نائم.. آه. كل شىء تغير فى هذه الدنيا.. أين أهلى وأين أقاربى.. ليتهم يجيئون ليروا تعاستى ويختشى الأسود.. الدنيا تغيرت..

هو: والله صحيح الدنيا تغيرت.. أنا كبرت وأصبحت أعرج، ولا أستطيع أن أقاتل ولا أن أهاجم.. ولم أعد قادرا حتى على تحمل الضرب والسب والاهانة.. ولا أدرى هل إذا مت ستجدين من هو أصغر منى سنا، وأكثر صبرا على لسانك ورجليك ويديك.. لا أعرف..!

هى: طبعا سأجد.. ماذا تظن فى نفسك.. أنت من تكون.. أيها العجوز الذى رضيت بك اشفاقا عليك.. ثم الآن تجد الشجاعة والوقاحة فتتكلم.. صدق المثل الذى يقول: من استحوا ماتوا..!

هو: وما الذى جعلك تصبرين طول هذا الوقت الطويل؟ تصبرين عشرين عاما..

هى: تقول عشرين عاما فقط! لقد ظننتها مائة عام.. يا ساتر يارب.. أنا ساكتة لأننى من أسرة.. عندى أصل. من أسرة ميمون المشهورة فى غابات الهند! أما أنت؟ فمن تكون.. ما اسم أسرتك وما اسم أبيك وجدك؟ لا أحد يعرف.. يا حكمتك يارب، راضية بالهم والهم ما هو راض..

هو: الطيبات لله.. والمثل يقول: اعمل الطيب والق به فى البحر..

هى: اسكت! اسكت! وجعت رأسى..

هو: أنا متأسف..

هى: هذا الذى أسمعه منك: أنا متأسف! أنا غلطان.. أنت مؤدب جدا. ولكن ماذا كسبت، ماذا ربحت أنا من أسف حضرتك وغلط حضرتك.

هو: والله أنا تحيرت فى أمرى معك.. إن أنا تكلمت تقولين اننى خائب الأمل، وإن أنا سكت تقولين: لماذا تسكت لماذا لا تتكلم؟ لماذا تتركنى أحترق وأغلى وأقوم وأقعد، وأنت ساكت.. ياقلبك الحديد، يا رأسك الحجر، يا دمك البارد؟ يا حفيظ! ماذا أصنع؟ اننى سأضع رأسى فى التراب وأقف على يدى، انتظارا لأحجار السماء التى تتساقط من بين يديك!

هى: احترس! ولك عين! يا رجل يا ناقص! يا فضيحة الرجال، يا قصير الذيل، يا أصفر الظهر، يا أقرع الرأس، يا عجوز يا كندوز. تعرف تقول لى ماذا صنعت اليوم! ماذا قدمت لى اليوم من طعام.؟

هو: ومن الذى يستطيع أن يقدم لك شيئا؟ لا يوجد رجل فى العالم يعجبك. فإن قدم لك طعاما، فأسوأ طعام، وإن لم يقدم لك طعاما، فأسوأ رجل! وإن امتنع عن الطعام فهو حزين منحوس مريض، وإن التهم الطعام

وكانت نفسه مفتوحة، فهو مبسوط لا يحمل هما ولا حزنا ولا يحس بـألم زوجته ومتاعبها.. ماذا أصنع..؟

هى: تسألنى ماذا تصنع؟ وأنت رجل؟ ماذا تصنع؟ أنـا لا أعـرف.. لو كنت رجلا من الرجال لأخبرتك.. ولكن مع الأسف أنا سـيدة.. سـيدة لا تعجبك.. والله القيامة قريبة.. أنا لا أعجبك! وأنت لا تعجب الـكلاب.. تسألنى ماذا تصنع..؟ وماذا يصنع الرجال.. فى أية غـابة مـن الغـابات وحديقة من الحدائق.. انهم يقفزون ويمدون أيـديهم إلـى المتفـرجين.. فيضحك المتفرجون، ويلقون إليك بالسودانى والبلـح والحلـويات.. كيف يعرف المتفرجون أن حضرتك فى حاجة إلى شىء.. اقفز.. تشـقلب.. قف على يديك، وقف على رجليك.. افتـح فمـك واصرخ.. فـإن الآدميـين لا يسمعون إلا من يصرخ، ولا يرون إلا من يضـع أصـابعه فى عيـونهم، ولا يشمون إلا ما يحرق أنوفهم.. كن قردا خفيفا! يـا خيبتـك الثقيلـة، ويا بختى الأسود..!

هو: بختك الأسود؟ لماذا؟ هل كنت تنتظرين أن تتزوجى ملك القرود؟ هل كنت تنتظرين أن ترقى إلى مدير الحـديقة؟ أنـت قـردة لا طلعـت ولا نزلت بين القرود.. جسمك كله عظم ولحمك كله شعر، ورائحتك كريهة! وأنا صابر عليك وعلى خشبك وعلى لسانك وعلى رائحتك.. لو كانت هنـالك قردة مثلك لدفنت نفسها فى التراب منذ ثلاثين سنة.. اسكتى! اسكتى!

هى: آه.. الآن تكلمت قول لى! أنا عارفة المـرارة التـى فى نفسـك، والقرف الذى يجعلك تمتنع عن الطعام... كل هذا بسببى؟ وجلـوسك مـع القرود الصغيرة؟ أنا السبب؟ إذن كنت تضحك على عندما كنت تقبل يدى، وتلعق رجلى! هذا كذب.. هذا هو الكلام الحقيقى.. أنت الآن على حقيقتك أنا فهمت كل شىء..!

وأخـذ القـرد الزوج يتململ ويتلوى من شـدة المغص، وتقول له: الآن ابحث عن قـردة جميلة تواسـى جـراحك وتضـع يـدها علـى بـطنك

الحمــراء فيخف المغص.. انـطلق يـا عجـوز.. يـا ناكـر الجميـل.. يا ناقص.. يا مريض..

هو: أنت السبب..!

هى: طبعا.. أنا سبب المرض.. لأنك تفكر فى جمالى ليلا ونهارا. والفكر يخلق المرض والمرض يقصف العمر.. والحب يعمل أكثر من ذلك..!

هو: عندما أموت ستعرفين قدرى! ستعرفين أى رجـل طيـب وزوج مسكين كنت أنا..

هى: لقد عرفت قدرك الآن.. من قال إنك حى.. أنت ميت.. ميت منـذ وقت طويل لقد عرفت قدرك!.

وأخذ القرد العجوز يتمرغ فى الأرض ويعلو ويهبط والقـرود الصـغيرة تمر به، والمغص يشتد، وصراخه يتعالى، ولكن القردة زوجته تركته وراحت ترقص للمتفرجين.. وأخذ الفول السودانى يهبـط عليهـا مـن أيـدى المتفرجين.. وتحركت الشفقة فى قلبها فتلفتت إلى زوجها العجـوز، ورأت فتيات القرود قد التففن حوله.. هذه تضع رأسه على رجليها وتلك تـواسى ألمه وعذابه، وثالثة تمسح دموعه.. وكلما اشتد عليه المغص راح يتلـوى ويقفز ويتأوه.. وجاءت زوجته تتبختر على الرمال ولما خشى القرد العجوز أن تشمت زوجته فى مرضه سكن وطوى نفسه على الألم والمغص..

ودنت زوجته بعد أن رأته وهو يقفز أمام فتيات القرود ثم هجمت عليـه وأمسكته من عنقه قائلة: الآن ترقص وتغنى.. هل تريد أن تقنع الفتيـات أنك ما تزال شابا.. هل تظن أن الفتيات قد فقدن بصرهن كما فقدت بصرك وذوقك وأدبك، وكما فقدت أنا حظى وبختى معك.. أين أسنانك أيها الشاب وأين شعر رأسك أيها الفتى؟ وأين الورد الأحمر فى ظهرك؟ يـا لك مـن عجوز وقح مريض مفلس...!

ثم أمسكت حجرا بكلتا يديها وضربته على رأسه.. فهوى إلى الأرض ميتا.. وانطلقت القردة الصغيرة تتوارى وراء الأحجار وفى الأقفاص وتتسلق جذوع الأشجار..

وجلست القردة الأرملة تبكى زوجها المسكين وحبيبها المخلص الذى ضحكت على عقله فتيات القرود فراح يرقص ويغنى.. يا لهن من مجرمات متوحشات !.

وانتقل زوجها من وراء الأسوار الحديدية إلى عالم الخلود إلى الجنة.. والطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره، وبالعذاب والمرض والفقر.. وكل زوجة تضرب زوجها إنما هى تدفعه فى الطريق إلى الجنة خطوة، وكل زوجة تقبل زوجها إنما تدفعه فى الطريق إلى النار خطوة..

وأضربت الأرملة المسكينة عن الطعام.. إنها حزينة.. وقد عرفت الجريمة التى ارتكبتها.. ومن الذى يستطيع أن يملك نفسه فى ثورة الغضب أو الغيرة.. لا أحد بين القرود ولا بين الكلاب.. وكم من جرائم ارتكبت تحت تأثير الغضب والخوف والحسد..؟

وكان الناس يتفرجون عليها ويضربون بحزنها المثل.. فهى الزوجة التى نفد صبرها، وأشفقت على زوجها من المرض ومن الشيخوخة فقتلته.. أو هى الزوجة التى غارت على زوجها من فتيات القرود فقتلته.. والغيرة حالة من حالات الجنون!

إلا أن هذه الأرملة أصبحت مضرب الأمثال.

وفى يوم من الأيام مر طبيب الحديقة وسمع الناس يتحدثون عن طهارة القردة وكرم أخلاقها ومعانى التضحية والوفاء التى أودعها الله فى غرائز الحيوان وحرم منها الانسان فهذه تقول يالها من مخلصة.. إنها أحسن من ست أم إسماعيل التى تزوجت بعد وفاة زوجها بسنة واحدة.. ولبست

الفساتين الحمراء والبيضاء ووضعت الكحل والأبيض والأحمر والأخضر. والنبى هذه القردة برقبتها..!

وتلك تقول: يا قادر يارب.. وضعت سرك فى أضعف خلقك، القرود عندها وفاء، القرود تعرف الحزن وتعرف حفظ الجميل. ربنا جعل الحيوان عبرة للانسان.. آمنت بالله.!

وثالثة تقول: والله لا أحد يعرف..

وضحك الطبيب فى نفسه وقال.

ـ أنا أعرف..

وبعد أيام أطلق الطبيب قردا عجوزا بين الاقفاص.. ولكنه أكثر حيوية وشبابا، ويتظاهر بالرشاقة مع أن إحدى ساقيه مكسورة، ويتظاهر بجمال العينين مع أن إحدى عينيه لا ترى.. وهو أكبر من القرد المرحوم بستة أشهر.. ثم قام الطبيب فوضع الأرملة القردة مع هذا العجوز المتصابى..

والتفتت الأرملة إلى العجوز وهى تقول: الحمد لله على السلامة.. لقد علمت انهم أتوا بك من مصر..!

ولكن القرد راح ينفض التراب من ذيله ومن رأسه.. فدنت القردة منه قليلا وقالت: كانت الرحلة شاقة.

ولم يدعها تكمل عبارتها وهجم عليها وراح يضربها بيديه ورجليه يمسك رأسها ويدقها فى الحديد دقا.. ثم يدير ظهره لها ويتطلع إلى وجوه المتفرجين.. وتقترب الأرملة منه وتقول: أنا متأسفة.. هل أغضبك أن يكون أصلك وأهلك من مصر.. أنا لا أعرف والجاهل أعمى كما يقول المثل.. أنا سأكون زوجتك الوفية..

ويهجم عليها القرد ويضربها.. من جديد.. وتضع رأسها بين يديها وتستسلم..

ويتلفت المتفرجون بعضهم لبعض ويقول الرجال: هذه هي الزوجة وإلا فلا..!

وتقول السيدات: قطيعة.. الرجال هم الرجال بين الناس أو بين القرود.. أيديهم طويلة ورءوسهم ناشفة..!

وتود الأرملة إلى القرد الجديد وتقول له: أنا متأسفة لقد أثرت أعصابك..!

ويجيء خادم الحديقة ويقدم الطعام.. وتظل الأرملة ساكتة لا تتحرك.. فإذا فرغ الطعام راحت تلعق الخشب وترقص للمتفرجين، فإذا ألقوا إليها السودانى أو الحمص تركته لزوجها الجديد.. وطوت نفسها على الجوع..

وسكنت أعصاب العجوز.. وعرفت الأرملة أنه ضعيف النظر، أصفر الظهر تقيل السمع.. وأخذت الأرملة تحس بأنها زوجة للمرة الثانية، وأنها سعيدة، وأنها ترقص أمام عجوز لم يتطلع لغيرها فليست له عينان يرى بهما عيوبها ولا أذنان يسمع بهما صراخها.. وليست له شهية إلى الطعام أو إلى المرح..

.. تستطيع أن تنقل هذا الحوار بين القرود إلى أية أسرة فى القاهرة أو فى «كفر طمبول» وتستطيع أن تسمى القردة الأولى «ست نوال» والقرد الثانى «سى لطفى» والقرد الثالث «سى زكريا».

فحواء هى حواء منذ كانت تعيش وحدها مع آدم وتقول له: من الذى أكل عقلك..؟

وحواء هى هى وقد أصبحت بناتها بالملايين.. تجدها هكذا فى الزمالك وفى تلال زينهم.. وفى حديقة حيوان ميلانو وفى حديقة حيوان الجيزة.

وإن كنت فى شك مما أقول.. فانتظر حتى تتزوج من ست نوال أو ست إحسان أو ست ليلى..!

الخطيئة امرأة ورجل

هل الخطيئة رجل..؟

أم هل الخطيئة امرأة..؟

لقد قرأنا وسمعنا وتعلمنا أن الخطيئة امرأة.. ولكن من الذى قال إن الخطيئة امرأة..؟

إنه الرجل! قالها فى الكتب المقدسة، وقالها فى كتب الفلسفة وفى كتب الأدب وفى الفن وفى الشعر.

والمرأة تعلمت فى مدرسة الرجل، فصدقت أنها سبب الخطايا، وأنها سبب الرذائل، وأنها الشر الذى ينزل بالناس. والشر الذى أنزل الطيب من السماء الى الأرض، والذى ألقى بأبناء آدم من الجنة الى النار!

انها حواء سبب المصائب والبلاء والشر..!

الكلام معها حرام، وصداقتها كفر ،ومعاشرتها خطيئة..

بل لقد قرأنا فى الانجيل: ان من نظر الى امرأة فقد زنى بها.

وقرأنا الحديث النبوى القائل بأنه لك النظرة الأولى، وأما النظرة الثانية فعليك..!

ومعنى ذلك أن النظرة إلى المرأة حرام..

فعند اليهود قرأنا قصة الخطيئة التى دفعت حواء، وأوقعت وراءها كل أبنائها وكل بناتها..

ولكن ما هى خطيئة حواء عند اليهود..؟

إنها أكلت من الشجرة المحرمة..!

وماهى الشجرة؟ إنها شجرة «المعرفة» فلما أكلت من الشجرة «عرفت» أنها عارية ورأت عورتها ورأت عورة زوجها آدم..

وهذه هى الخطيئة..!

ومعنى ذلك أنه كان لا ينبغى لحواء أن تعرف شيئا.. فالمعرفة خطيئة، والجهل فضيلة..

وحواء فضلت المعرفة على الجهل..

أما آدم فهو الجاهل الفاضل، وحواء هى العالمة الخاطئة.

هذه إذن هى خطيئة حواء، وهذه إذن هى فضيلة آدم..

هذه إذن هى الخطيئة التى استحقت عليها حواء كل لعنات أبنائها من الفلاسفة والأنبياء والشعراء والأدباء..!

ولما جاءت الديانة المسيحية.. ازداد معنى الخطيئة، ووقعت كلها فوق رأس حواء.. وأصبح الكلام معها حراما، والجلوس اليها خطيئة ومعاشرتها شرا..

ليس هذا فحسب، بل أنه قد جاء فى الانجيل: إن من «نظر» إلى امرأة فقد «زنى» بها

فإذا أنت نظرت إلى امرأة، فقد زنيت بها. والزنى حرام.. فالنظر إليها إذن حرام..!

لأن خطيئة حواء هى أنها نظرت إلى شجرة المعرفة وأكلت منها، فنظرت إلى نفسها، والنظرة إلى حواء خطيئة، فحواء خاطئة لأنها تنظر إلى نفسها..!

وجاءت الديانة الاسلامية، وقال الرسول، وهو يتحدث عن النظرة إلى المرأة: لك النظرة الأولى، وعليك النظرة الثانية.

ومعنى ذلك أنك إذا نظرت عن غير قصد إلى امرأة، فلست مخطئا، أما إذا نظرت إليها عن قصد فأنت مخطئ..

فالنظرة إلى المرأة حرام.

فلابد أن نغمض عيوننا عن المرأة، وأن نتجنب المرأة، وأن تستر كل جسمها حتى لا تقع عليها عين الرجل.. وإلا وقع الرجل فى الخطيئة، والخطيئة هى حواء..!

هذه كلها هى أفكار الانسانية منذ أكثر من ألفين من السنين! وقد تغير المجتمع وتغيرت نظرة الرجل إلى المرأة وتغيرت المرأة، وتطور كل شىء الا فكرة الخطيئة.

فإنها ما تزال لها صفة المرأة، وما يزال الرجل بريئا وما زال المجتمع يكيل بكيلين..

فالرجل لا يخطئ أبدا، والمرأة تخطئ دائما..!

والرجل يفعل ما يشاء، والمرأة لا تفعل شيئا..

لماذا لا يخطئ الرجل؟ ولماذا تصدق النساء ما يقوله الرجال من أن الخطيئة تنبع من المرأة ولا تنبع من الرجل؟

لسبب واحد.. هو أن المرأة تعلمت فى مدرسة الرجل وأكلت فى مطعم الرجل، ولبست من صنع الرجل، وآمنت بدين الرجل.

فالمدرسة بناها رجل وألف كتبها رجل، وطبع هذه الكتب رجل.. والمدرسون من الرجال، وناظر المدرسة رجل، ووزير كل معارف رجل.. والأنبياء رجال، والفلاسفة رجال والشعراء رجال والمخترعون رجال..

والرجل لا يكتب الا فلسفته هو، ولا يؤمن الا بآرائه هو وتعلمت المرأة فى مدرسة الرجل، فآمنت بما قرأت وما سمعت، واتهمت نفسها.. أما الرجال فبراءة..

وأعتقد أن الكارثة التى أصابت الرجال هى أنه صدق ما قيل له عن المرأة وعن خطيئتها. فهو اليوم بعيد عنها، ويريد أن يقرب منها، وهو اليوم يخافها ويرغبها، ويحبها ويكرهها.

لقد وضع لنفسه القيود، ويريد أن يتخلص منها، ووضع الفلسفة لحواء، فصدقتها حواء، أما هو فلا يصدق هذه الفلسفة..

إنه يريد حواء، ولكن المجتمع يمنعه، إنه يريد أن ينظر إلى كل خلية فى جسم حواء، ولكن الدين والقانون والتقاليد كلها تقف فى وجهه.

أما حواء فقد تعودت على القيود، وتعودت على عبادة الأوثان..

أما آدم فهو اليوم يريد أن يحطم ما بناه، وأن يكفر بما آمن به، وأن يعلن أنه لا خطيئة هنالك..!

ولعل حواء لم تنجب ابنا أقسى من ابناء الفيلسوف اليونانى سقراط..!

لقد عاش سقراط قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون... وكان يعيش فى مدينة أثينا.. وكان ذكيا وكان طويل اللسان خصب الخيال قوى الحجة، شديد التأثير على أتباعه، على من يعرفه، وعلى من لا يعرفه.. وكان يتحدث إلى الناس فى كل مكان فى الشوارع والأسواق.. وكان يقوم بدور محطة اذاعة صارخة قوية عنيفة..!

وكانت مدينة أثينا يسودها نوع من الشذوذ الجنسى.. فالرجال يعشقون الرجال والنساء يعشقن النساء.. وكان المثل الأعلى للجمال هو جمال الرجل..

وكان سقراط قبيح الصورة، بشع الأنف، عارى الصدر، حاف القدمين.. وكانت دمامة سقراط مضرب الأمثال، حتى كان إذا قدمه أحد تلامذته لأناس لا يعرفونه فإنه يعتذر عن دمامة سقراط..!

وكان سقراط هو الآخر مصابا بشذوذ جنسي، وكانت امرأته تضربه لنقص فى رجولته..!

فسقراط إذن لا يغرى الرجال، ولا يغرى النساء.. فليس جميلا كالرجال، وليس جميلا كالنساء..

وحين يتحدث إنسان عن جمال الجسم، فإنه يستبعد سقراط نهائيا..!

فماذا ننتظر من رجل قوى الخيال، شديد الذكاء، قبيح الصورة، ومصاب بشذوذ جنسى؟

هل ننتظر منه أن يمدح جمال الجسم، هل ننتظر منه وهو شاذ أن يتغنى بجمال المرأة والجلوس إليها وأن يحلم بها إذا بعدت عنه، وأن يغيب عن وعيه إذا حضرت معه؟

هل ننتظر من رجل كانت تضربه زوجه لعيب فى رجولته أن يمتدح النساء، ويمتدح الزوجات؟

لا شىء من ذلك ننتظره من سقراط!

وقام سقراط بأكبر عملية تخريب عرفتها الانسانية فى معسكر الرجال والنساء على السواء..

فأعلن أن جمال الجسم كذب فى كذب.. وأن جمال الجسم شىء زائل، وأن الجمال هو جمال الروح.. وأن الفضيلة فى أن تكون بعيدا عن المرأة وألا تخضع لاغرائها أو لفتنتها وأن تقاوم كل نداء للجنس لأنه نداء يريد

أن يلقى بنا فى الأرض، والانسان يجب أن يعود إلى السماء إلـى حيـث كانت روحه تعيش فى مكانها الطاهر..

إن الفضيلة عند سقراط هى أن يحاول الانسان أن يموت على درجات.. أن يقفل عينيه فلا يرى شيئا وأذنيه فـلا يسـمع، وأن يـأكل القليـل ولا يستجيب للمرأة.

هذه المعانى الصغيرة سجلها سقراط فى عشرات الالوف من الصفحات من كتبه الجميلة العبارة الفاتنة الحجج.

وفلسفة سقراط هذه، لم تستطع الأديان أو الفلسفات أن تفلت من تأثيرها..

إنها فلسفة رجل قبيح الصورة ناقص الرجولة، فى مجتمع يعشق الرجل الجميل..

ولم يحدث أن أعلن انسان أن الخطيئة والمرأة شىء واحد كمـا فعـل سقراط وتبعته فى ذلك الاديان والحضارة الانسانية كلها..

لقد حكمت أثينا على سقراط بالاعدام.. وحكمت عليه أن يشرب كأسـا من السم لأنه أفسد الشباب، وشغلهم عـن أنفسـهم ودس فى رؤوسـهم خرافات عن الفضيلة والرذيلة.. وشرب سقراط السم فى شجاعة القديسين...

ولكن السم الذى شربه سقراط ما يزال يسرى على ألسنة الشواذ مـن الرجال والنساء، والخائفين من رجال الدين والمشعوذين من المصلحين!

ان الخطيئة ليست امرأة، ولكنها امرأة ورجل.. والفضيلة ليست رجـلا، ولكنها امرأة ورجل!

والانسانية لم تتطور الا عندما نسيت هوسة القديسين، وشذوذ الفلاسفة وجبن المصلحين، والا عندما آمنت بالحرية والمساواة بين الرجل والمرأة!

والحرية هى حرية الخطأ والصواب، حرية الرذيلة والفضـيلة، حـرية الخطيئة والقداسة.. حرية لكل حواء ولكل آدم!

جواب حبيبي

بدأت علاقتهما بالتليفون.. ولا تسألنى كيف بدأت ولكنى أعرف أنها بدأت على هيئة تحيات وتمنيات وكلام عن الجو وعن المجلات وعن الفساتين وعن المعارض. فهو يسألها : ماذا قرأت، وماذا أكلت، وماذا شربت. ومتى تخرج من البيت ومن التى زارتها اليوم ومتى تذهب إلى السينما ومن سيكون معها.. وهى توجه اليه أسئلة مماثلة وتحرص على أن تقول له : هل لبس البدلة الغامقة والجرسيه الصوف وهل تناول طعام الافطار أم أنه مايزال مصرا على تناوله فى الشراع صباح كل يوم.. كل يوم يدور قرص التليفون ويدور معه هذا الحديث.. كل يوم صباحا وظهرا ومساء وفجرا..

وكان صوتها جميلا هامسا مبحوحا.. فيه أنوثة هائلة كاسحة.. وصوت المرأة عضو حقيقى كشفتيها وساقيها ونهديها وعينيها.. وكان صوتها مجموعة من الأعضاء.. كانت كلماتها قبلا، وعباراتها عناقا طويلا.. ولكنه لم يعرف منها الا صوتها.. وكان من هذا الصوت يتخيلها سمراء طويلة، أو بيضاء ممتلئة. وكان يرسم لنفسه شفتيها تلامسان التليفون، ويلتصق بهما التليفون ساعات وساعات.. ثم رآها عن بعد، كما سمعها عن بعد.. لم يرها بوضوح ثم رآها بعد ذلك بوضوح.. لمسها بيديه وشفتيه، وأغمض عينيها

بيديه، وأغمضت عينيه بيديها.. وتحولا معا إلى مجموعة مـن الأصـوات الغامضة المبهمة. وأعلنت أنها تحبه.. وأعلن لها كذلك. فلم يبـق لـديهما شىء يقولانه، لم يبق شيء.. الا أن يحرص على حبها، والا أن تحـرص على حبه.. ولم يعد فى حياتهما جديد.. لا جديد من عنده، ولا جديد مـن عندها، فهو يعرف عنها كل شيء، وهى تعرف عنه كل شـيء.. لا أسرار.. لا غموض.. لقد قال كل ما عنده، وقالت كل ما عندها، فإذا جلسـا معـا فالسكوت من ذهب. وإذا تكلما فخير الكلام ما قـل ودل. وإذا تنـاقشا فى أمر، فكل لبيب بالاشارة يفهم..

ومرضت الفتاة ولزمت بيتها، ورفعت سماعة التليفون .. ودخلت حجرتها ولم تنم حتى الصباح.. ومع ضياء الفجر نهضت من فراشها وأخرجت ورقة وقلما وبدون تفكير راحت تكتب :

«حبيبى...

لا تسألنى لماذا أكتب إليك، وأنا التـى أتحـدث إليـك كل يـوم .. لا تسألنى فإنه لا شىء يقتل الحب كالأسئلة. فالحب كالطفل الصغير يجب الحواديت وهى وحدها التى تجعله ينام فى قلبى وفى قلبك.. سيكون هـذا الخطاب مفاجأة لك. وأنا أريد مفاجأة فى حياتى وفى حياتك. فإن حياتنا قد أصبحت بلا مفاجأة.. انها مجموعة من العادات.. اننى أحبك.. كما أحـب الأكل والشرب والنوم.. فأنا أفكر فيك، كما أفكر فى أى شىء آخر.. اننـى أكل بحكم العادة وأحبك بحكم العادة، وأنا لا أريد أن أحبك بحكم العادة، وانما بحكم الحب.. هذا كلام غريب.. وسيدهشك، وأنا أريد أن أدهشك.. أريد أن ارى العبرة فى وجهك.. اريد أن أرى شيئا لم أره فيك. اريـد أن أسمع منك شيئا جديدا.. اريد أن أعرف هل هذا الشىء الذى يأكل قلبى ويمتص ريقى ويسرق نومى، هل هذا الشىء هو الحب.. فـإذا كان هـو الحب، فلماذا لا اتعذب، لماذا لا أبكى، لماذا لا أخاف عليه، لماذا لا أقلق عليك أنت».

ومدت يدها إلى صدرها وأخرجت صورته ونظرت إليها وراحت تكتب:
«اننى أرى فى عينيك غضبا كامنا، إنك تريد أن تصرخ فى وجهى.. ليتك تفعل.. ليت صورتك تقول شيئا.. ليت فمك ينفتح الآن ويلعننى.. ويقذف فى وجهى بأى شىء.. لا تقاطعنى يا حبيبى.. فقد أمضيت ليلة أمس كلها أفكر فى هذا الذى أكتبه لك.. ليلة كاملة، وأنا حائرة العين بين سقف الحجرة وبين صورتك.. لماذا لا تقوم بتجربة جديدة. لماذا لا تجرب شيئا جديدا لم تعرفه.. لماذا لا ينفصل بعضنا عن بعض أسبوعا كاملا.. اننى أتمنى أن أرى وقع هذا الكلام فى نفسك، أتمنى أن أراه الان فى عينيك، وفى انقباضة شفتيك، وأن أسمعك وأنت تتنفس بصوت مرتفع، لماذا لا تتجاهل التليفون أسبوعا كاملا؟

إننى أريد أن أعرف مدى حبك لى وأريد أن أعرف مدى حبى لك. أريد أن أعرف معنى القلق، ومعنى الخوف ومعنى الانتظار، اننى لا انتظرك أبدا.. لاننى أعرف مواعيدك ولا أبحث عنك أبدا، لاننى أجدك دائما، انهم يقولون ان الحب هو حبل من المطاط يشده اثنان، وكلما تباعد أحدهما عن الآخر، ارتدا بعنف، وانا أريد أن أبتعد عنك لارتد اليك بعنف.. فإن كان هذا الذى بيننا حبا، رجعت إليك بقوة،وان كان مجرد عادة، انقطع الحب والحبل معا وأنا لا أريد أن أحب حبا كاذبا وانما أريد حبا صادقا كصفاء عينيك وكدقات قلبى..

أريد أن أعرف هذا، أنها تجربة تستحق كل عذاب، هل تعرف القصة اليونانية العظيمة التى تروى لنا أن رجلا ذهب إلى، ميدان القتال وترك زوجته وراح يقاتل ويحارب وينتصر على أعدائه سنين طويلة. وقيل لزوجته إنه مات، وانه يحق لها أن تتزوج رجلا غيره ولكنها رفضت.. أما هو فقد انتقل من الانتصار على الأعداء، إلى البحر يقطعه طولا وعرضا عائدا إلى زوجته، وغالب الموت وانتصر عليه، ثم قاوم الشياطين وانتصر عليهم، ونزل إلى البر وانتصر على الوحوش.. وحاربته الآلهة أكثر من عشرين عاما..

عشرين عاما. وكان أبناء المدينة يجتمعون كل ليلة حول زوجته، هذا يغريها بالمال وهذا يغريها بالجاه وذلك يغريها بالشباب. ولكنها رفضت فقد أرادت أن تكون وفية لزوجها. لقد أرادت ان تعرف مدى قدرتها على الصبر والكفاح لقد أرادت ان تنتصر فى معركة الاغراء والضعف والملل... كما انتصر زوجها فى الحرب مع قوى البشر والالهة... وهداها تفكيرها إلى أن تقول لهم انها اذا فرغت من عمل ثوب لابنها الصغير فستعلن اختيارها لواحد منهم زوجا لها.. وكانت كل يوم تصنع الثوب، فإذا جاء الليل مزقته من جديد.. ومضت سنوات وضاق ذرع هؤلاء الرجال.. وأخيرا استسلمت وأعلنت أنها ستختار واحدا منهم الليلة.. وفى تلك الليلة وصل زوجها.. وقضى على هؤلاء الرجال جميعا وعاد إلى زوجته الوفية..

ومسحت دمعة فرت من عينها، ورفعت شعرها إلى الوراء وعادة تكتب:

«أنا أعرف أن هذه القصة لن تعجبك فستقول ان هذه الزوجة قد رقصت وشربت وغنت وكانت سعيدة مع هؤلاء الرجال. وأن ابنها الذى انجبته لم يكن من النساء وأن صاحب هذه القصة رجل وليس امرأة.. والرجال كاذبون، يكتبون ما يرضى غرورهم. ولكن عندما تكتب المرأة التاريخ وتسجله بقلمها سيكون لنا شأن آخر.. اننى سعيدة لأننى أعارضك، سعيدة لأننى أتصور أنك تخالفنى فى الرأى، سعيدة لأننى أتصورك غاضبا ثائرا.. لا تبخل على بهذه اللحظة.. وأنا لا أطلب إليك ان توقف هذه التجربة التى حدثتك عنها إلى أن يخلق الله جيلا من النساء يكتبن التاريخ ويروين القصص وينظمن الشعر.. أبدا بل سأبدأ بها فورا.. الآن.. اننى أنظر إلى صورتك فلا أرى غضبا ولا ثورة.. لماذا لا يتحرك وجهك.. لماذا لا تمتد يدك إلى وجهى فتلطمنى، لماذا لا تعلن اليوم الذى عرفتنى فيه.. لماذا؟ اننى أتمنى أن تكون لى الشجاعة يوما لأقول لك هذا الذى أقوله.. لا أطمع فى أكثر من ذلك. ولكننى عندما أراك وأجلس معك.. فلا كلام ولا أعرف لى قلبا ولا عقلا ولا أدرى من أكون.. إننى أحس بأننى لا شىء.. بأننى هواء أو بأننى فراغ!

إننى أعلم انك ستصرخ واعلم أنك ستهددنى بتركى، وأنك لن تحدثنى واعلم أنك ستجد فتيات غيرى كثيرات.. ان هذا الكلام الذى أكتبه ويدى ترتجف يثير النار فى قلبى، يثير الغيرة فى نفسى.. اننى أغار حتى من هذا الخاطر.. ولكننى أريد أن أغار أريد أن احترق.. أن أتعذب.. لماذا لا تدفع الدمع إلى عينى.. لماذا لا تجعل فراشى من الشوك فلا أنام، لماذا لا تحمل معدتى معك، فلا آكل ولا أشرب، لابد من هذه التجربة. فهناك أشياء كثيرة لم أعرفها، لم أسمعها لم أرها، لم أحس بها.. لابد. لا تناقشنى لا تحدثنى بالتليفون.. كن شجاعا وكن رجلا».

وفى هذه اللحظة انفتح باب حجرتها ودخل شاب طويل شاحب الوجه يشبه صوتها الشاحب، ونظر إليها فى دهشة وذهول وراح يتطلع إلى شعرها المتهدل على وجهها وقد جلست تكتب هذا الخطاب منبطحة على الأرض.. وانحنى واختطف الخطاب من أمامها.. فصرخت وانفجر فيها قائلا: لمن هذا الخطاب.. يا كذابة.. من أجل هذا لم تتكلمى أمس.. من أجل هذا لم أسمع لك صوتا.. تكلمى.. لماذا خرست.. تكلمى والا مزقت لماذا خرست؟. تكلمى والا مزقت شعرك فى يدى.

ولكن وجهها اشتعل حمرة وتصبب عرقا ونزلت الدموع من عينيها وقالت فى صوت مخنوق: كنت أنتظر هذا الغضب وهذه اللعنات منذ عشرين شهرا!.. إننى أحبك!

أشياء صغيرة

ألا يحدث أن تختلف معها، أقصد حبيبتك، ويبلغ الاختــلاف بينــكما درجة تحس فيها أنه لا خير فى النــاس، لا فى الـرجال ولا فى النســاء.. فالصديق عدو، والحبيبة مصيبة. ويتحرك فى نفسك صوت يقول: لن أحــب بعد اليوم. هذا كذب! هذا وهم.. ضياع للوقت والعمر والمال!

ثم تلعن الساعات التى أضعتها معها، والورد الذى نثرته أمامها ودموعك وبكاءك وقلقك وخوفك عليها، وما قلته لها، وما قالته لك.. وتمتد يداك إلــى رأسك وتضع خدك على كفك وتستمع إلى أغانى أم كلثوم وهــى تقــول: حرمتنى من نار حبك!

وينتقل الضباب من حولك إلى عينيك، إلى سمعك، إلى صــدرك. فــإذا أنت يائس كافر بكل ما هو خير فى الحياة وفى النــاس.. فــكل شــىء شر وظلام.

ولكن ألا يحدث بعد ذلك بوقت طويل أو قصير أن تحس أن الضــباب أخذ يتحرك فى صدرك وينتقل إلى أنفك، إلى العالم حولك، وإذا به يتلاشى شيئا فشيئا كما تتلاشى أثواب سالومى وهى تــرقص، وإذا العــالم كلــه ضحك واغراء وابتسام وحياة، انه يتحول إلى سالومى..

كل ذلك لأن شمسا ظهرت فى هذا الضباب، هـذه الشـمس الصـغيرة اسمها : الحب !

أعرفهما منذ وقت طويل، ولم أسمع بما حـدث لهمـا الا فى الاسـبوع الماضى.. لقد اختلفا وأقسم كل منهما ألا يعود للآخر أبدا.. أبدا.

سألتها : ماذا حدث؟

قالت : تسألنى عن هذا العاق، هذا الجاحد الجـامد القلـب؟؟ مـاذا صنعت له .. أنا التى ضحيت من أجله بأبى وأمى واخوتى وابـن عمـى الذى كان يعبدنى من دون الله.. هل تدرى ماذا حدث؟ لقد رآنـى هـذا الحبيب الكاذب، إنه كاذب أنا أقسم لك أنه ما كان يحبنى يوما من الأيام.. رآنى مع عمى وزوجته.. ولم أكد أراه حتى اتجهت نحوه سعيدة، أمد قلبى قبل يدى لأسلم عليه.. ولكنه انطلق دون أن يكلمنى كلمة واحدة.. أو حتى ينظر إلى اليد التى امتدت لتصافحه.. هل تتصور هذا؟ أنا أعلـم أنهـا وسيلة من وسائل الهرب.. لقد سمعت من أصدقائه أنه لا وفاء عنده، فلـم أصدقهم، وقلت لعلهم يكيدون له، ولكنى الآن صدقتهم جميعا.. فلا وفـاء عنده ولا اخلاص، انه كذاب، وكلهم كذلك.. كلهم!

وسألته : ماذا حدث؟

فقال : يا شيخ، هذا عذاب فى عذاب، لا أول له ولا آخر... إذا أعطيتها بعض الحرية قالت إننى لا أحبها، وإذا غرت عليها قالت : إننى فـلاح !.. ولكن يا أخى أنا لا أستطيع أن اراها مع احد فى هذا الموقف الخليع دون أن يتحرك دمى ويحملنى ويلقى بى فى وجهها أو بعيـدا عنهـا.. رأيتهـا فغضبت.. ألا يصح أن يغضب الانسان.. الا يصح أن يثور من أجلها؟ ثم ماذا حدث؟ لقد تركتنى يا صديقى.. تـركتنى دون أن تـكلمنى، دون أن تسأل عنى، لو كانت تقيم وزنا لعواطفى لأرسلت خادمتها أو أرسلت خطابا ووضعته فى عنق كلبها تسأل فيه عن صحتى، ذلك الكلب الذى كان يحبهـا

والذى ضحى من أجلها كثيرا ومايزال يضحى، وأنا لا أحب أن أذكر شيئا من تضحياتي.. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، ولن يحدث.. أهذا وفاء؟ بل كذب! انها كانت تنتظر ذلك اليوم، أنا أعرفها أكثر منك!

وكان البيتان متجاورين، وكانت النوافذ مقفلة، خشبا وزجاجا.. فلا كلام ولا تحيات، وقد تحولت هذه النوافذ إلى أحجار كأحجار الجدران!

ولكن بدأت أصابع صغيرة ناعمة وأصابع خشنة طويلة تزحف على النوافذ فتفتح الزجاج وتتلمس الخشب، وإذا الخشب ينفتح كأنه شفتان، وإذا الفتحة تتسع كأنها ذراعان وإذا اثنان.. وجها لوجه، وقبلة طائرة، وفم من هنالك يتلقى القبلة حتى لا تختطفها فتاة أخرى! هذه الاصابع الصغيرة اسمها: الحب!

أسمر اللون وهى بيضاء قصيرة القامة وهى طويلة.. هادئ وهى ثائرة، محبان، فى بيت كل منهما تليفون..

والمحب إذا كان فى بيته تليفون، فلا طعام ولا شراب ولا عمل ولا فكر، ولكن كلام وكلام وآهات.. وماذا يعمل الآن وماذا يعمل بعد ذلك، متى يذهب إلى السينما ومن رأى فى الطريق ومن سمع من النافذة.. ويظل كذلك كل يوم حتى الفجر حين يقول: اصبحى على خير!

وتقول هى: وأنت على خير!

كل يوم كذلك.. وتنام هى وينام هو، ويوقظ أحدهما الآخر فتقول هى: القبلة الاولى لك!

ويقول: والثانية؟

فتقول: لك أيضا.. اليوم!

ويقول: اليوم فقط؟

فتقول: بل فى كل يوم!

وما اجتمع هذان الاثنان الا كان التليفون ثالثهما.. وويل للبشرية إذا كان كل المحبين من ذوى التليفونات!

ولكن لما اختلف الاثنان، اختفى التليفون، وانكتمت أنفاسه. فلا حركة، ولا صوت، ولا رنين، وأصبح كريه اللون والصوت..

وامتدت يد الفتى الأسمر إلى ورقة يطلب فيها إلى مصلحة التليفون أن تريحه من التليفون، وأنه لم يعد فى حاجة إليه..

ثم يطوى الورقة ويضعها فى جيبه بين مجموعة من الخطابات الزرقاء المعطرة.. وكل يوم يرى التليفون كأنه غراب أسود يبعث على اليأس من الناس ومن الحياة، ويتهجم على التليفون يريد أن يحطمه.. ولكنه تراجع..

وفى لحظة يحس أن التليفون يريد أن يقول شيئا ولكنه يتردد.. ويرفع السماعة فإذا التيلفون فيه حرارة مفاجئة.. كيف جاءت.. من أين؟ انه لم يسمعها قبل ذلك بأيام.. غريبة! ولكن أصابعه تزحف على القرص وتتحرك وحدها، ويقول: آلو.. أنا آسف.

فتقول: بل أنا آسفة!

هذه الحرارة التى دبت فجأة فى التليفون اسمها: الحب! كان كأى تلميذ.. يذاكر ويتعب ويسهر ويشرب قهوة ويعيش فى الليل، يسبح فى بحار من البن الاسود.. ولكن كثيرا ما كان يغلبه النوم فينام، والنوم لذيذ، إذا كان هربا من القراءة والكتب وسيرة الامتحان، والأساتذة والدور الأول والثانى..

وكان كغيره من الطلبة يلعن السينما والقصص، وهو ينظر إلى ورقة الامتحانات وإلى الاسئلة.. أين قرأ هذا؟ وأين سمع هذه النظرية، وماذا قال هذا الاستاذ؟ لا يعرف، ولكنه يلعن الطلبة والراديو والضيوف

سجائر والقهوة.. والقهوة تلك التى يشربها فتتحول إلى صــمغ أســود يمسك عينيه فلا تتفتحان إلا فى الأحلام!

وفى يوم بعد الامتحان دخل الفراش، وحاول أن ينام، ولــكن اتســعت عيناه لكل شىء، لكل ما فى الشارع فإذا هو يفكر فى أشياء غريبة ليســت واضحة، وإذا هو يقلب فى المذكرات الجامعية التى كان يهرب منهــا دون أن يدرى ماذا يعمل.. انه لا يقرأ ولا ينام..

وإذا صوت بائعة اللبن تنادى فى الشارع.. ان النهار قد طلع!..

انه سهران، ولكنها قهوة من نوع آخر لا توضع فى الفنــاجين، وإنمــا تصبها العيون فى القلوب مباشرة، اسمها: الحب!

مرة فى العمر

هل الانسان لا يحب إلا مرة واحدة فى حياته، فإذا عرف مائة فتاة، وكان يحب واحدة منهن فقط يصبحن جميعا أصفارا على الشمال.. وتبقى الفتاة الأولى شامخة الرأس فى الحاضر أو فى الماضى؟

هل القلب لا ينفتح إلا مرة واحدة؟ فإذا انفتح لا تدخله إلا فتاة واحدة؟ وإذا أرادت فتاة أخرى أن تدخل هذا القلب لم تستطع أن تبقى به إلا لحظات.. كأنها فى زيارة أحد المتاحف، والناس لا يعيشون فى المتاحف وإنما يزورونها وحسب.. وإذا أرادت أن تبقى فى هذا القلب، فإنها يجب أن تنسفه وأن تحطمه كله فلا تدخله إلا وهو حطام.. بل إنها لا تستطيع أن تدخله، ولكن تستطيع أن تدوسه برجليها وفى رجليها حذاء غليظ.. أى بعد أن يكون قد تحول إلى أشلاء!

هل الانسان لا يحب إلا مرة واحدة ولا يرتفع صدره إلا مرة واحدة ولا تنشرح نفسه إلا مرة واحدة..؟ ولا يرى «طاقة» القدر إلا مرة واحدة، وإذا كانت له علاقات بآلاف النساء فإنهن يقفن جميعا فى طابور واحد أمام عتبة القلب.. لا فى داخل القلب.. أو فى العقل .. وما يدخل العقل من السهل أن يخرج منه.. أو فى المعدة.. وما أسهل ما تهضم المعدة!

إذا سألت الرجال قالوا لك : بل حب واحد.. وتقول النساء. حب واحد !

ويظل الرجل هكذا حتى يضيع حبه الأول.. تنقطع العلاقات مع الفتاة التى يحبها.. لأنها ماتت أو لأنه مات، أو لأنها تزوجت أو لأنه تزوج.. أو لأنهما تشاجرا أو انفصلا.. أو لأى أسباب أخرى.. ويصبح الرجل يعيش على الذكرى. على الأيام التى قضاها واقفا على رؤوس الشوارع وأمام السينما وفى المطاعم وفى حجرته وساهرا فى الفراش، ونائما على سماعة التليفون.. وقد يحس هذا الرجل بالندم.. فإذا به يهرب من نفسه ومن هذا الاحساس .. وكلما سمع صوتا داخليا يلومه على هذا الذى فعله، راح يرفع صوته عاليا حتى لا يسمع شيئا فى داخله.. وراح يشرب الخمر، أو يملأ جوفه بالطعام حتى يرتمى فى الفراش فلا يحس شيئا أو يسرف فى السهر أو فى العمل، فإذا هو يرتمى مرهقا ويقع إعياء ويمرض ويتعذب.. إنه يريد أن يعذب نفسه لأنه يستحق هذا العذاب، إنه يريد أن يعاقب نفسه. إنه نادم على ما فعل..

ولكن كيف ينساها؟ لابد أن يعرف فتاة أخرى؟ كيف ينظر إلى وجه آخر، ويتطلع إلى شفتين أخريين، وكيف يفتح أذنيه إلى صوت غريب.. إن الذى يحب معناه أنه يدين بالولاء لملك من الملوك.. وهذا الملك له صور مطبوعة على كل شىء فى حياته.. كما يفعل الملك تماما.. له صور على طوابع البريد وعلى أوراق العملة وفى الصحف وفى عقله وفى قلبه.. فإذا أحب فتاة جديدة فلا بد أن يمزق كل هذه الصور، ولا يكتفى أن يضع عليها علامات سوداء كما نفعل فى طوابع البريد بل يجب أن يمحوها تماما.. يجب أن تكون؟ ولكن كيف يمحو من نفسه صورة امرأة التصقت بعينيه ولسانه ونفسه ونهاره وليله، وفرحه وحزنه..

كيف يخرج على طاعة الملكة التى هو الفرد الوحيد فى دولتها؟ وكيف تتخلص المرأة من الملك الذى يحكم دولتها.. إن الحب هو قوانين صارمة يفرضها الرجل على المرأة وهى تطيعه دائما.. وهو قوانين تفرضها المرأة

على الرجل وهو يطيعها دائما.. إنها تقيده، وهو الآخر يقيدها.. إنهمـا فى قيود دائمة.. فالحب معناه أن تقع باختيارك فى القيود، أن تكون حـرا فى هذه القيود.. فكل المحبين أحرار فى قيودهم، مقيدون فى حريتهم!

فإذا انفصل المحبان.. بالخصومة أو بموت أحدهما، أو لأى سبب مـن الأسباب... فهل يموت هذا الحب؟

هل تستطيع امرأة أخرى لها مزايا أخرى أن تقضى على الحـب الأول وتدخل هذا القلب وتطهره بالد.د.ت وتضع فيه أجهزة تـكييف الهـواء.. وتصبغه بلون آخر.. هل تستطيع هذه المرأة الجديدة بما لها مـن مـزايا وجمال وثقافة ومال أن تقضى على كل أثر للحب الأول؟؟ ربما.. ولكن الرجل عندما يحب امرأة فإنه يعلم أنها ليست أكثرهن مالا.. إنه يحبها وحسب.. وهو يعلم أن هناك من هى أجمل منها عشرات المرات.. ولكنه يحبها.. وقد يلتقى بفتيات أفضل منها.. ولكن لا شأن لذلك كله بالحب الأول.. فـالفتاة الثانية تقرب من قلبه بقدر قربها من صورة الفتاة الأولى.

إن الفتـاة الثانية قد تجـد صعـوبة فى فتح قلب الرجـل من جـديد ولكنها تستطيع أن تتحايل عليه فتدخل هذا القلب وتصـنع لـه مفـاتيح جـديدة. وتضيق الخنـاق على الرجـل فلا تسمح له أبـدا بـأن يتـرك النـوافذ مفتـوحة.. لأن القلب ليس إلا بيتا خاصـا يسـكنه اثنان؛ ولكنه ليس لوكاندة لكل الناس.. وتحس هذه المرأة الجـديدة أن هـذا القلـب كانت تسـكنه العفاريت وأنها يجب أن تطردها بـالبخور والصـلاة علـى الأنبياء والأولياء والقديسين!

أعرف صديقا تزوج منذ سنوات وكان مغرما بـالأفلام الايـطالية وكان يصطحب زوجته معه إذا ذهب إلى السينما. وكان يجعلها تتحمس مثله إلى هذه الأفلام.. وفى يوم أعلن للزوجة أنه يحب هذه الممثلة لأن صوتها يشبه صوت أول فتاة أحبها.

وكانت كارثة.. وراحت الزوجة تبكى. وقررت أن تهجره إلى الأبد.. وكانت تقول له : إذن أنت تدعونى وتجلس معى فى السينما لتفكر فى الفتاة الأولى.. أما أنا فلا وزن لى ولا قيمة!! أنت إذن لا تزال تحب الفتاة الأولى... لماذا تزوجتنى! لأنك تذهب إلى السينما معى وتفكر فيها.. ألهذا تزوجتنى؟

وقد اختلفا من ذلك اليوم ومازال الخلاف يكبر ويكبر والمسافة تتسع بينهما حتى أصبحت هى الآن فى سوريا وهو الآن فى الخرطوم!

إن المرأة كأى ملكة من الملكات لا تستطيع أن تعيش فى دولة وفيها ملكة أخرى. والرجل كأى ملك أو كأى إله لا يطيق أن يجد رعاياه يخلصون لملك آخر أو يعبدون إلها آخر.

والرجل يحب وهو يعلم أن الفتاة التى يحبها مليئة بالعيوب.. إنها كالتفاحة فيها بذور.. إنها كالبرتقالة فيها بذور وفيها قشور.. إنها كالتين الشوكى فيها بذور وفيها قشور وفيها أشواك.. والمرأة كهذه الفاكهة لها طعم حلو ولكن فيها عيوب يلقى بها الرجل إلى ما تحت قدميه.. ولكنه يحبها رغم هذه العيوب..

أذكر أن صديقا روى هذا الكلام منذ أسبوعين لزوجته فإذا هى تقول له علىٰ الرغم من انها مثقفة! وأنت كلك عيوب ماذا تظن فى نفسك.. هل أنت أحد ملوك الجمال.ٰ. هل يعجبك هذا الأنف.. هل يعجبك هذا الكرش.. هل تظن أننى قبلت الزواج منك إلا عطفا على حالك. لقد كان هناك شاب يحبنى.. ولكن القسمة.. وقلة الحيلة.. طبعا قلة حيلة حضرتك.. فالفتاة الأولى التى أحببتها كانت تعرف أين توجعك وأنت تحبها لأنها كانت قاسية وأنا طيبة، كانت ترن أحذيتها على رأسك أما أنا فأقبلك على جبهتك! طبعا تقبله على جبهته لتشم أفكاره!؟

والحقيقة أن هذه الزوجة كفتاته الأولى بالحرف الواحد. نفس اللهجة ونفس العيوب. ولكنها لا تعلم.. وإنما أنا أعلم ويعلم صديقى.. وهو يعيش معها لأنها تذكره بالفتاة الأولى التى لم يستطع أن يجعل منها زوجة له..

إنه الحب الأول مستمر.. إنه كالنهر له اتجاه واحد ومجرى واحد، ولون واحد.. إنه صورة واحدة تكبر وتصغر وتتلون بألوان متغيرة وتصبح لها أسماء مختلفة.. عشرات الأسماء ولكنها شيء واحد.. لها طعم واحد.. هو العذاب.. على يد المرأة التى نحبها والمرأة التى لا نحبها!

للمخطوبين فقط!

أجمل أيام الزوجية هى أيام الخطبة، أيام كل شىء فيها قريب أو بعيد.. كل شىء تراه ولا تلمسه، أو تلمسه ولا تذوقه، أو تذوقه ولا تأكله، أو تأكله ولا تشبع..

وهى أيام كلها أحلام وأوهام.. أحلام جميلة.

فهذا الخاتم الذهبى هو طوق النجاة من حياة الوحدة والبيت الموصد الأبواب والنوافذ، هو طوق النجاة الذى يلمع كلمعان العيون، والذى لا يصدأ كالحب الصادق ويلتف حول الاصبع ولكنه لا يخنقها، كما تلتف ذراعا الخطيبة حول عنقك فلا تتألم أنت، ولا تتألم هى مهما طال العناق..

اجعل هذه الأيام طويلة فإنها لا تتكرر.. حتى لو تزوجت أكثر من مرة.. اجعلها طويلة ولا تأسف على طولها فأيام الحرمان قليلة.. ولكن أيام الوصال كثيرة.. ستكون زوجا سنوات طويلة وستكون أبا سنوات طويلة، وسيكون كل شىء فى متناول يديك وشفتيك وقلبك وعقلك..

ولكن أيام البعاد والحنين والشوق والآهات والأمل والرغبة فى التضحية والبطولة.. أيام قصيرة..

إذا كنت لم تتزوج بعد، فهذا الكلام كله لك.. وإذا كنت قد تزوجت، فهذا الكلام كله كان لك.

إننى رأيت العالم وعشت فيه، ورأيت السعادة على وجوه المحبين، ولم أذقها.. ورأيت فرحة اللقاء، ولم أعرف اللقاء، ولم أعرف فرحته.. أنا أستطيع أن أحدثك عن اللقاء وعن السعادة، وأنا أستطيع أن أقدم لك قائمة بأشهى الاطعمة أشهى أطعمة المحبين.. وطعام المحبين، لقاء وضياء وهمس وقبلات وحرارة وسحر وأمل..

إلى الذين لم يتزوجوا، إلى الذين ينعمون بأيام الخطوبة ويتعجلون نهايتها، إليهم جميعا أسوق هذه الأحلام..

إننى أحلم معكم بشهر عسل، يبدأ بأيام الخطوبة ولا ينتهى.

إننى أحلم بأسبوع أقضيه فى إيطاليا.. بلاد الحرارة والبساطة والجمال.. أحلم بأيام اقضيها فى مدينة البندقية. أركب الجندول إلى جوار عروس ولا أرفع عينى عنها حتى لا يغيب عنى مولد ابتسامة، أو شعاع سعادة.. فإذا أغمضت عينى فلكى أحلم بها.. وأطلب إلى صاحب الجندول أن يغنى الأغنية التى أحبها.. والتى سمعتها بكل اللغات التى أعرفها، فلا يكاد يفتح شفتيه حتى أميل على كتف عروستى

وأقول:

أريد أن أنام هكذا

أنام هكذا

فمى على فمها

وقلبى يعانق قلبها

أنام هكذا..

ثم أمد يدى إلى الماء ولا أشعر ببرودته.. فإن الذى يحب لا يؤثر فيه الماء ولا الهواء ولا الضياء.. إنه لا يحتاج للهواء لكى يعيش، لأن الأرواح لا تتنفس، ولا يحتاج إلى الماء ليرتوى لأنه لا يشكو الظمأ، ولا يحتاج إلى الضياء ليرى، انه يسير وراء قلبه.. وأذوق طعم الماء، فلا أجد الا طعم السعادة.. انه حلو..

وأطلب إلى صاحب الجندول أن يسير بنا إلى كوبرى التنهدات.. فتحت هذا الكوبرى سار كل المحبين ونهدوا وتعانقوا.. ورفرفت حولهم الملائكة وطالت أعمارهم مئات السنين.. فيوم من السعادة يعادل مئات من سنوات الشقاء. وتحت الكوبرى لن أشعر بشىء، ولن أحتاج إلى شىء.. فكل ما أريده بين ذراعى، وكل ما أتمناه فى شفتى، ولن ارفع رأسى إلى السماء أشكر الله، فأنا أسبح له وأسجد له بقلبين معا.

وأحلم بأن أجعل الأيام الأخيرة من هذا الأسبوع فى مدينة «رابالو» بإيطاليا.. أنها أجمل المدن الصغيرة على ساحل الريفييرا.. وفى هذه المدينة التى يتسلل الماء إلى شواطئها، وراح يبعث بجواسيس من الأمواج تمشى همسا فلا يراها ولا يسمعها أحد.. فى هذه المدينة سأعيش مع عروسى.. أو سأكون سعيدا معها.. وهناك سأزور «قصر الأحلام». أنه قصر بلا أبواب.. والسعداء لا يخافون أحدا ،بل إنهم لا يخافون الموت ما دام سيجمع بينهم.. وهو قصر لم يتم بناؤه.. أنه كالسعادة لا تبنى مرة واحدة، وأنما يوما بعد يوم، ولا ينتهى إلا بالموت.. وفى هذا القصر اجتمع ملايين الازواج والعشاق والمحبين.. إنهم ينشدون البركة من صاحبى هذا القصر.. أنهم يتعانقون مع ضوء القمر، ويصحون مع أشعة الشمس.. لقد كان لهذا القصر حبيبان بنيا هذا القصر بأيديهما.. والسعادة قصر لا يبنى على الرمال وإنما يبنى على الصخر.. يبنى على أساس متين من الفهم والعطف والوفاء.. وفى يوم قرر الحبيبان أن يتما سعادتهما لقد خشى الحبيبان أن يحسدهما الناس، وأن يدخل الزمن بينهما.. ويترك آثاره

البيضاء على شعر الفتى، وتجاعيده العميقة على وجه الفتاة.. فقـررا أن يموتا فى شبابهما.. واحتواهما البحر.. وفى اليوم التالى ظهرت على صفحة الماء ورقة لامعة وكان مكتوبا عليها: نحن نتمنى سعادة أعـظم، وعمـرا أطول لكل المحبين.

هكذا تقول الأسطورة فى مدينة رابالو.

وهناك سأذهب إلى القصر، وأسير فى الطريق الساحلى الضيق، وأضـم إلى صدرى عروسى السعيدة، أحميها من أشواك الطريق التى امتدت إلـى وجوه المحبين، وعندما يعلو الطريق سأحملها على كتفى..

ان السعادة تجعل الانسان طفلا.. سأحس أنها ابنتى ،وأننى أبـوها، وأننى حاميها وحارسها، وأننى أسير بها فى شجاعة شـمشون وفى إيمـان المسيح.

وفى قصر الأحلام ننسج معا أول خيطين فى ثوب السعادة وأحلم بأسبوع آخر أقضيه فى باريس..

ولن أعيش إلا فى الحى اللاتينى.. الحى الملىء بالحياة والشباب من كل لون ودين.. الحى الذى لا ينام إلا مفتوح العينين، والحى الذى لا يشـبع لأنه طفل جائع دائما، والحى الكريم الذى لا يرفض من يدخله، ولا يضيق بمن يقيم فيه.

سأعيش كما يعيش الشبان فى هذا الحى.. سألبس قميصـا وبنـطلونا، وأحمل طعامى على ظهرى.. وأحمل فى يدى فـونوغرافا ومجمـوعة مـن الأسطوانات.. وأتنقل طول النهار فى كل مكان.. أمشى على شاطىء السين، فإذا تعبت من السير جلست.. وحيث أجلس أرى ظلى لا يفارقنى، مهمـا كانت السماء ملبدة بالغيوم، ولا يكون الظل إلا حيث يكون النور.. أما النور ففى قلبى، وأما الظل فهو السعادة.. أنها تتبعنى كظلى.. لقمـة واحـدة

تكفينى.. وجرعة واحدة من الشراب تسكرنى، ونغمة واحـــدة تســحرنى، وعروسى.

لن أجلس فى مكان واحد.. لن استقر على ارض أو فى هواء أو فى ماء.. أن العسل تجمعه النحلة التى تنتقل من زهرة إلى زهرة.. وأنــا كالنحلــة أجمع السعادة من رحيق ما أرى وما أسمع وما أتذوق.. ومن عروسى..

إن الحى اللاتينى يعيدنا إلى الشباب الذى ودعناه من أسبوع.. أننــا دخلنا مرحلة الرجولة.. مرحلة الحب والواجب، مرحلة السعادة والمسئولية، مرحلة الحاضر الذى يولد منه المستقبل مرحلة الفرد الذى يعيش من أجل الأسرة من أجل المجتمع.

اليوم فى الحى اللاتينى.. وغدا فى مونمارتر، وبعد غد فى فونتنبلو، وبعده فى فرساى.. سأرى التاريخ والفن والفلسفة والعلم والحياة.. فى كل شبر من الأرض.. أننى أنا الآخر اساهم فى هذا التاريخ.. أننى نهاية حلقة طــويلة من الناس بدأت منذ أقدم العصور، أننى اساهم فى هذه الحياة، إننى دليل جديد على أن الاسرة هى أكمل نظام اجتماعى عــرفته الانســانية.. وأن السعادة ممكنة، وأن الحب يدوم، وأن باريس هى نفســها شــهر العســل الدائم لكل الانسانية!

وسأحلم بأسبوع ثالث فى مدينة تيبنجن بألمانيا..

إن هذه المدينة كانت مدينة جــامعية لا يســكنها إلا الــطلبة وأســاتذة الجامعات. لا توجد بها أماكن للهو أو العبث.. أن أهلهــا قــوم جــادون عاكفون على الدرس.. لقد عاش فيها فلاسفة عظام، عاشوا وماتوا فقراء.. وفيها بيت كان يعيش فيه ثلاثة من أكبر الفلاسفة فى العالم، كانوا ينامون فى حجرة واحدة، ويدرسون على ضوء الشموع.. إننى اريد أن أرى هــذا البيت الذى عاش فيه فلاسفة ظللت السنين الطويلة أدرس لهــم، وأضرب رأسى برؤوسهم، وأحاول أن أفهمهم وأستعين عليهم بالسهر تارة وبــالنوم

تارة أخرى ،ولم أكن أحبهم.. ثم أحببتهم، ولما أحببتهم فهمت كل ما يقولون.. ومن يومها عرفت أنه الحب وحده الذى يفتح الأبواب الموصدة والرؤوس المقفلة.. لقد كنت تلميذا مجتهدا فقيرا شقيا، وكنت مدرسا للفلسفة فى الجامعة، وكنت مجتهدا وكنت شقيا.. واليوم أزور هؤلاء الذين أشقونى وأسعدونى.. إننى أحمل لهم دليلا حيا، وأحمل لهم معى حبا آخر، حبا جميلا فاتنا.. إنها عروسى تعلقت فى يدى، وتعلقت فى يدها..

ومن بيت الفلاسفة هؤلاء أرى «حديقة الآهات» التى يذهب إليها الطلبة سرا ويقومون بتهريب القبلات، لقد كنت مثلهم وكنت محروما، ولم أستطع أن أنال قبلة من أحد، لا عطفا من أحد.. ولم يدرك وجودى أحد، لقد كنت تلميذا ضائعا مضيعا.. إذا سار الناس على الأرض، سرت على الحائط، وإذا ساروا على الحائط، تبددت فى الهواء.. ولم أعد اليوم كذلك، إننى وحيد المى، بل أن حياتى قد تضاعفت قد ازدوجت.. فأنا أعيش بجسمين، وأفكر برأسين، وأنبض بقلبين.. أنا وعروسى فى حديقة بلا آهات !..

والأسبوع الرابع سأحلم أننى فى مدينة جنيف بسويسرا.

سأسافر مع عروسى إلى أنظف بلاد فى العالم.. كل شىء فيها مغسول. الأرض والهواء والسماء.. أرض لم تعرف التراب، والهواء لم يعرف الدخان، والسماء لم تعرف الضباب.. والناس مغسولون أيضا.. كلامهم نظيف، وتفكيرهم أنظف من كلامهم، وأخلاقهم هى النظافة نفسها.. اننى فى سويسرا فى قمة العالم.. فهى بلاد فوق قمم الجبال.. أنها عالية ككل شىء فيها.. سأملأ صدرى بهوائها ــ أقصد سأملأ صدرها بهواء الصحة والعافية. ففى باريس قد تذكرت أيام الشباب الذى توجته الرجولة.. وفى سويسرا سأحلم بأيام الشيخوخة السليمة فى هذه البلاد، سأجلس على مقعد طويل وأمد رجلى.. لقد أن لى أن أمد رجلى وأن اتوقف عن الكفاح قليلا. فقد قدمت لبلادى الكثير.. لقد علمت وتعبت وكتبت، وكان لى رأى،

وكان لى موقف.. وسهرت من أجل وطنى.. وقدمت له من الأولاد.. ولدين وبنتا، أما الولدان فأحدهما طبيب، والآخر مهندس.. فلم أشأ أن اجعلهما صحفيين، فقد تمنيت لاولادى مستقبلا أحسن، ولى ابنة هى اليوم زوجة مثقفة لها ولد وابنة.. فانا اؤمن بأن مكان المرأة هو البيت. هذا ما قدمته لأولادى ولأحفادى ولوطنى. وزوجتى تجلس إلى جوارى تقلب فى صور أولادها وأحفادها، وترى شبابها وشبابى فى أولادنا وتضحك من حين لآخر، كما تذكرت اننى كنت اختلف معها على تسمية أولادنا، وأننى كنت أخاف المستقبل.. وأننى كنت أقول دائما أن الذى يكافح ويخلص فى كفاحه يستطيع أن يعيش فى سويسرا من راحة الضمير. وأنه يستطيع أن يجعل سويسرا تعيش فى رأسه وفى قلبه..

سأحلم مع عروسى وأنا فى مدينة جنيف ونحن نجلس فى «حديقة الأنجليز» المتواضعة، اننا نستطيع أن ننعم بشهر عسل آخر فى شيخوختنا إذا جعلنا شهر العسل يتكرر ولو يوما واحدا من كل اسبوع.

إننى احلم مع كل المحبين، أحلم واسبقهم إلى مواطن السعادة التى رأيتها، ولم أكن سعيدا.. فيأيها السعداء لا تغضبوا من متطفل عليكم.. فأنا لا أحسدكم، وإنما أذكركم بالسعادة التى لا تشعرون بها.. فالسعادة تاج على رؤوس السعداء لا يعرفها إلا الأشقياء..

وجودية وحب وزواج!

طلب منى أحد مندوبى مجلة جامعية أن أجيب عن هذه الأسئلة، وقال إنها ستنشر فى مجلة جامعية، ولم أفهم معنى هذا التحفظ، ولكنى ذكرت له أنه لا يعنينى فى أى مكان تنشر، فهذا رأيى على أى حال:

بما أنك سافرت إلى أوروبا ما رأيك فى المستوى الثقافى للطلبة المصريين إذا قورنوا بزملائهم فى الغرب؟

ـ الطالب الأوروبى أوسع أفقا وأكثر إدراكا للحياة فى بلده وفى البلاد الأخرى، وهو يجد فى لغته كل الآثار الأدبية والفنية والعلمية، فلا يحتاج إلى مجهود كبير للاطلاع عليها أكثر من معرفته للغة الأصلية.. أما الطالب المصرى فلا يجد باللغة العربية إلا القليل النادر جدا من الكتب المفيدة.. ويكفى أن تعلم أنه لا يوجد عندنا قاموس واحد باللغة العربية، ولا توجد عندنا دائرة معارف واحدة فى أى علم من العلوم. أضف إلى ذلك تلك البيئة الحرة والتربية الرياضية والتشجيع الدائم من الهيئات الرسمية والأهلية على السواء.. كل هذا يجده الطالب الأوروبى، ولا يسمع به الطالب المصرى.

وأنت تستطيع أن تتحدى أى تلميذ فى كلية الآداب بأية جامعة أن يعرف من هو «بيسارو» أو من هى «فلورنس نينجيل» أو أين يوجد (قصر

الأحلام) أو من هو أول من قام بعملية ترقيع شبكة العين.. هذه معلومات عامة يعرفها أى إنسان مثقف!

والطالب المصرى طالب «متعلم» ولكنه ليس مثقفا.. فهو يدرس ما يعطى له ويذاكره ويحفظه عن ظهر قلب.. ولكنه لا يتجاوزه إلى العلوم الأخرى التى لن يمتحن فيها آخر العام!

وهذا هو «التعليم فى مصر»، وتلك هى «الثقافة» فى أوروبا!

يقول الوجوديون أن التفكير يقتل الوجود فهل تشجع تلامذتك فى الجامعة على الرغم من هذا، على القراءة والتفكير؟

- أفهم من السؤال أن التفكير يقضى على التجربة الحية ومعنى ذلك أن الانسان عندما يكون خائفا أو قلقا أو مسرورا، ثم يفكر فى خوفه أو قلقه أو سروره، فإن هذا التفكير من شأنه أن يضعف هذه التجربة.. وهذا صحيح والذى ينظر إلى رجليه وهو يركب الدراجة من الممكن أن يسقط أو يصطدم بشىء أو بأحد المارة، والذى يتتبع اللقمة، وهى بين أسنانه وهى فى حلقه، وهى تستقر فى المعدة، هذا الانسان لا يمكن أن يحس بمتعة الطعام.. وإنما هو إنسان ينظر إلى لقمة العيش على أنها كرة قدم وينظر إلى نفسه على أنه «رف» فى مباراة فيقول.. الكرة بين الأسنان.. الكرة أصابت الحلق.. برافو الكرة فى المعدة.. إصابة مباشرة للكبد.

وإصابة مباشرة للوجود الانسانى كتجربة حية!

وأنا لا أشجع الطلبة على القراءة أو التفكير، ولكن أنا أرجوهم وأتوسل إليهم!

هل تؤيد توحيد الزى الجامعى؟

- لا أرى معنى لتوحيد الزى الجامعى، ولكن إذا كان لابد من توحيد الزى الخارجى، فانه أقل ضررا من توحيد الأزياء العقلية.. بمعنى أن

يصبح الطلبة أو الناس جميعا أصحاب «زى عقلى» واحد لا يغيرونه ولا يلبسون سواه، وحينئذ يكون الزى العقلى طغيانا واحتلالا مسلحا لكل فكر حر!

فليس الناس متساوين فى أفكارهم ولا فى تجاربهم ولا فى مدى استفادتهم من الفرص التى تعطى لهم.. أما حشر الناس جميعا فى أزياء واحدة، فظلم لأصحاب المزايا والمواهب، وإذا أنت حاولت أن تجعل أصابع يديك متساوية مع أصغر الأصابع، كان معنى ذلك أن تكسرها جميعا حتى تتساوى مع أصغرها وأقصرها.. والذى يستفيد من هذا التحطيم هو أقل الأصابع طولا وأقصرها حيلة!

فليس الخطر أن يتوحد الزى من الخارج ولكن الخطر كل الخطر أن يتوحد الزى من الداخل!

ما رأيك فى الروح الجامعية عندنا فى مصر؟

- حكاية الروح الجامعية هذه لا أعرفها فى مصر.. فعندنا فى مصر مبان جامعية، ولكن لاتسكنها روح حقيقية أن الجامعة عندنا كمدينة الأشباح.. اننى أستطيع أن أنقل أحدث المعامل فى العالم إلى مصر، واستطيع أن أجلب لها أكبر العلماء وأستطيع أن أستدعى اينشتين ليحاضر فى شبرا أو فى فم الخليج.. كل هذا لا يحتاج إلى أكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات!

وهذا أمر سهل للغاية!.

ولكننى لا أستطيع أن أمنع الناس فى يوم وليلة أو سنة وسنتين بأن يسيروا على اليمين، والا يبصقوا فى الأرض، والا يعاكسوا الفتيات فى الطرقات.. هذه أمور يسيرة ولكنها تحتاج إلى زمن إلى تجارب، إلى إصلاح شامل فى المجتمع المصرى!

والجامعة ليست منفصلة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر والذى يريد أن يصلح الجامعة وحدها، دون أن يصلح المجتمع المصرى، كمن يريد أن يعالج اصفرار بشرة الوجه، وتساقط الشعر دون علاج للجسم كله.

فلا تسأل عن الروح الجامعية قبل أن تعالج الجسم الجامعى!

إلى أى حد ترى إباحة العلاقة بين الطالب والطالبة فى الجامعة؟

ـ لا أعرف «أى حد» للعلاقة بين الطالب وبين الطالبة.. لأن هذا «الحد» يحدده الطالب وتحدده الطالبة.. وأنا لا أحجر على حرية أحد: وليس من حق أى إنسان أن يقيد حرية أحد من الناس!

اننى أعرف أن المكان الوحيد ـ مع الأسف ـ الذى يلتقى فيه الطالب بالطالبة هو الجامعة، فليست هنالك أماكن أخرى. وأنا لن أغضب فى يوم من الأيام، إذا وجدت الطلبة يتخلفون عن المحاضرات لأنهم «يتشمسون» أو يتسامرون فى الحوش أو فى المكتبة، اننى أعذرهم، وأرى أن الحق معهم، وليس عليهم.

ويجب أن تعلم أن المجتمع الذى كله من الرجال مجتمع غير طبيعى. والمجتمع الذى كله من النساء مجتمع غير طبيعى فهذه المجتمعات تجدها فى السجون، وفى المستشفيات، وفى المعسكرات.. ولكن الحياة العادية والمجتمع السليم: رجل وامرأة، ويد واحدة لا تصفق، وفم واحد لا يقبل!

طالب وطالبة، هذا طبيعى والعلاقة بينهما لا يحددها أحد.. إلا.. هما!

وماذا ترى ليستكمل الطالب والطالبة تحررهما العقلى؟

ـ إننى أعتقد أن الحرية الشخصية أهم بكثير من الحرية السياسية.. ولا يمكن أن تفهم الحرية فهما سليما إذا فهمت الحرية الشخصية.. يجب أن تكون لدينا حريات كثيرة.. ليس أقلها «الحرية العاطفية» أن من حق

أى إنسان فى مصر أن يكره وأن يحقد وأن يحسد، ولكن ليس من حقه أن يصادق وأن يحب.. لأن الحب معناه أن تتحدث إلى فتاة، وأن تخرج معها وأن تلتقى بها كل يوم، وأن ترقص معها.. ولكن أين؟ لا مكان فى القاهرة لأى اثنين جمع بينهما الحب.. ولكن فى القاهرة أقسام بوليس ومحاكم، وليست فيها حديقة واحدة ولا شارع واحد، تستطيع أن تهمس فيه لأية فتاة وتقول لها: إنى أحبك!

ولكن تستطيع أن تقول بأعلى صوتك وتجد معك ألف واحد ممن لا تعرفهم يرددون معك قولك: إننى أكرهك وأحتقرك وأفتح كرشك!

امنح الشبان هذه الحرية، ثم.. راقبهم بعد ذلك فى الجامعة.. ستجد رؤوسا صافية، وآذانا صاغية، وعيونا واعية، وفهما وإنتاجا وحبا للجامعة وللانسانية.. وحينئذ يصبح للحياة معنى وهدف، وتصبح الحرية والوجود شيئا واحدا!

وبعد ذلك لك أن تسألنى عن الجامعة والروح الجامعية.. وحينئذ أسكت عن الاجابة وأشير إلى أقرب طالب وطالبة!

أيهما أسبق فى الوجودية: الوطن أو الانسانية؟

– الوجودية أولا وقبل كل شىء مذهب إنسانى، بمعنى أن الوجودية تقوم على الفهم الحقيقى للانسان، فى قوته وفى ضعفه.. عندما يكون سليما وعندما يكون شاذا.. والانسانية هذه كلمة لا معنى لها ولا وجود لها.. ولكن الذى يوجد هو أفراد الانسانية مثل لطفى وزكريا ويونس وفاطمة ونوال وراشيل.. هؤلاء جميعا نسميهم اناسا وأفرادا.. قد يجتمعون معا فى «جمعية» واحدة أو فى «حزب» واحد أو فى «شركة».. وهذه الكلمات: جمعية وحزب وشركة ووطن توجد ثانيا: أما الذى يوجد أولا فهو هؤلاء الأفراد.

فالانسانية أولا، وبعد ذلك القومية أو الوطنية أو أى شىء آخر.

فأنا وأنت.. الخلية الأولى فى المجتمع، والمجتمع الخلية الثانية فى الدولة، والدولة خلية فى الانسانية.. والذى يجعل للفرد قيمة ومعنى، يجعل للانسانية معنى!

نريد أن نعرف، ولكن بصراحة، لماذا لم تتزوج حتى الآن!

ـ أفهم من السؤال أن الأمر يحتاج إلى صراحة، وأنا صريح جدا، وأنه كان مفروضا، أن أتزوج من وقت طويل، ولكنى لم أفعل!

أنا لا أعلم لماذا كان مفروضا أن أتزوج منذ وقت طويل فهل هنالك سن معينة يجب أن يتزوج فيها الانسان؟

لا أعرف!

ولكنى وعلى يقين من أمر واحد وهو أن الزواج قرار خطير، ولهذا يحتاج من الانسان إلى تفكير طويل.. اننى لا أريد أن أفكر طويلا كما فعل الفيلسوف الألمانى «كانت». لقد فكر وفكر، فكانت النتيجة أن الفتاة تزوجت، وفكر مرة أخرى.. فكانت النتيجة أن الفتاة الثانية هاجرت دون أن يتزوج منها الفيلسوف!

أليس معنى ذلك أننى أكره المرأة.. ولكننى أحبها حبا شديدا، وأشفق عليها من عذاب ينالها معى.. أشفق عليها من أن أتركها وحدها فى البيت ساعات طويلة، فلا أتغدى معها ولا أتعشى معها.. وأشفق عليها حين أعود إليها مع الفجر مكدودا متعبا، وأشفق عليها حين أعود إليها أول الليل أحمل كتبا وأظل أقلب فيها ساعات وساعات وأنساها وأنسى ضيوفها وأنسى أن اليوم عيد ميلادها أو عيد زواجنا. كل ذلك يدور فى رأسى فأغمض له عينى وأطوى صدرى على قلب يخفق لكل شىء جميل، وأجمل شىء فى هذا العالم هو المرأة!

إذا حلا لك أن تتزوج فهل تفضل أن تكون جامعية مصرية؟

ـ قلت من قبل أن التفكير يقضى على التجربة الحية.. وأعتقد أن المرأة المثقفة جدا، امرأة لا تستطيع أن تعيش «جدا» ولا أن تدرك الحياة إدراكا مباشرا. وإلا فهل تستطيع أن تقول أن أكثر الناس ثقافة أكثرهم سعادة، وأن الحياة تسير على هدى الكتب!

أشك فى ذلك كثيرا؟

والانسان إذا أراد أن يتزوج فإنه لا يتزوج مجموعة من الكتب ولا من الشهادات، ولكنه يتزوج «جوا» أو «جسما» ويحب «روحا» تسكن هذا الجسم.. وقد تجد هذا كله فى فتاة جامعية، وقد تجده فى فتاة لا تعرف اسم أى جامعة ولا اسم هذه الصحيفة ولا كاتب هذه السطور..

وأننى أعلم حقيقة بسيطة وهى أن أجمل الطيور ريشا أقبحها صوتا.. وأكثر الناس ثقافة، قد يكون أتعسهم حياة وأشقاهم حين يتزوج!

لقد كان الشاعر الألمانى «جيته» يقول: أن الرجل لا يحب فى المرأة علمها وأدبها ولكن يحب أنوثتها!

وأنا أقدر المرأة المثقفة، وأقدر ذوقها فى القراءة وفى الكتابة، ولكن أفضل أن يكون لها ذوقها فى الملبس، وأقدر جمالها أيضا! وأحب أن أسمع حديثها عن المناديل والروائح.. إننى لا أريد مكتبة ولكن أريد «جوا» وألوانا وعطرا.. أريد أن «أعيش».. وقد تجد هذه العيشة عند أخيب تلميذة فى الجامعة، وعند الأولى فى الليسانس وعند جرسونة فى محل فول مدمس!

ولكن هذا على أى حال رأى شخصى.. ونحن فى مصر محتاجون فى الخمسين سنة القادمة إلى أمهات مثقفات أكثر من حاجتنا إلى أمهات جميلات.. فإذا كانت الفتاة مثقفة وجميلة، فألف مبروك وبالرفاء والبنين!

سعادات

انها ولدت وعاشت وتموت فى الليل..

وهذا الليل ما تزال آثاره باقية فى نفسها.. انظر إلى عينيها لا ترى إلا سوادا، انظر إلى عروق يديها كأنها مملوءه بالحبر.. انظر إلى عينيها انهما خضراوان، ولكنك لا ترى إلا لونا أسود..

انها لم تكن كذلك.. وإنما صارت كذلك.. لم تولد شقية، ولكن أصبحت شقية.. انها إحدى ضحايا الناس.. انها كرة مازال الناس يضربونها بأيديهم وأرجلهم.. يشربون ريقها، ويأكلون صدرها، ويعصرون ساقيها، ويلقون بعظامها فى الطريق..

اننا نراها كل يوم.. بفستانها الأحمر وشعرها الاسود، وأنفها الطويل، وعينيها الجميلتين.. أن عينيها هما أنظف وأطهر ما فيها.. فهى تغسلهما بالدموع كل يوم.

من هى «سعادات»؟ من هو أبوها؟ من هى أمها؟ من أين جاءت؟ وكيف انزلقت وكيف رماها الناس؟ لا أحد يعرف، فهى تكتم هذا كله عن الناس.. ولكن الانسان لا يستطيع أن يكتم سره طويلا.. أنه كمن يمسك

قطعة من الفحم المشتعل فى يده فلا يلبث أن يلقى بها فى الأرض.. والقت «سعادات» بالفحم الملتهب فى وجهى..

حياتها بدأت كما تبدأ حياة كل فتاة..

أحبت شابا واكتشفت بعد وقت قصير أن هذا ليس حبا.. وإنما هو مجرد اهتمام عابر.. وأن الحب الحقيقى هو الذى تحس به نحو شاب آخر.. يكبرها بعشر سنوات. وكانت فى ذلك الوقت فى الخامسة عشرة من عمرها، انها لا تعرف معنى لهذا الذى يملأ حياتها كلها.. يملأ عينيها فلا ترى غير هذا الشاب ويملأ أذنيها فلا تسمع سواه، ويملأ قلبها فلم ينفتح لأحد غيره.. انها تحب.

وغدر بها هذا الشاب. كان يسخر منها. انها قصة دموع وسهر ومرض ويأس وانتحار مرة ومرة.. ودخول المستشفى وخروج إلى الحياة مريضة ضعيفة كافرة بالناس..

وتقدم منها أو تقدم لها شاب عرف قصتها وأشفق عليها.. وأعلن أنه ليس كهذا الشاب وأنه يريد الزواج فعلا.. وأن الحب أكذوبة لا معنى لها.. وأنه لا يؤمن بالحب، وانما بالتفاهم والتعاون والتعاطف.. أى هو يعطف على حالها وهى تعطف على حاله.. أما حالها فهو يعرفه.. وأما حاله هو فهى قد عرفته.. أنه رجل وحيد مات أبوه وماتت أمه وماتت زوجته.. وتركت له طفلا صغيرا.. ورفضت «سعادات» أن تكون أما لطفل لم تلده.. واكتفت أن تكون أما لطفل يتم اسمه: الحب..

وتقدم منها.. أو تقدمت هى لرجل تريد الزواج منه.. والحقيقة أنها لم تتقدم إليه.. ولكن هذا الرجل لم يكد يطلب إليها الزواج منه حتى وافقت.. لم يكد يمد يده إليها حتى مدت ذراعيها وساقيها له.. ووافقت على الزواج.. أنه يكبرها بأربعين سنة.. انها لا تحبه.. وهو لا يحبها. ولا يمكن أن تحبه ولا يمكن أن يحبها .

لقد قررت أن تتزوج من رجل عجوز لا تحبه.. وعرفت مع هذا الـرجل الملابس الفاخرة وركبت سيارة لها سائق.. وكانت تسـتمتع بـالنظر إلـى السائق وهو ينتظر أوامرها وكانت لا تأمره بشيء.. كانت تتركه يسـير فى الشوارع على غير هدى.. كل متعتها فى ذلك الوقت أن لها زوجـا وبيتـا وسيارة وكانت لها متعة أخرى..

هذه المتعة هى أن تظهر مع زوجها العجوز فى كل مكان.. وكانت تسمع همسات الشبان وهم يقولون: هذه الفتاة لا يمكن أن تكون زوجته.. إنهـا ابنته. ويظل الشبان يحسدون هذا الرجل على هذه الوردة النضرة اللامعة الأوراق الساحرة المعطر ويظل الشبان يلعنون هذه الفتاة ويلعنون أبـويها وأهلها الذين دفعوها فى أحضان رجل غنى عجوز.. ويتساءلون: كيف يوضع هذا الفم الجميل على هذا الشارب الابيض الأصفر.. وهـاتان الـذراعان المرتعشتان كيف تعانقان هذا البركان الحى من اللحم والدم والشـباب.. والفتنة.. مجنون هذا الرجل ومجنونة هذه الفتاة..

كانت هذه متعة الفتاة.. كانت تحس أنها تفاحة وأن هـؤلاء الشـبان جميعا شفاه تلمس جلد التفاحة ولا تذوقها.. وأنها تـريد أن تنتقـم مـن الشاب الأول الذى أحبته وخانها.. وتريد أن تنتقم من كل رجـل انـانى يريدها خادمة فى بيته.. بل تريد أن تنتقم من كل إنسان يعـطف عليهـا.. إنها لا تريد عطف أحد ولا حب أحد ولا أحدا من الناس.

إن سعادات كانت تكرر نفس العذاب الذى صبه آلهة الاغريق على رجل اسمه «تنتالوس».. لقد عذبوه بأن وضعوه فى بحيرة من المـاء.. وجعلـوا الشمس تحرقه بحرارتها.. وجعلوا ماء البحيرة يرتفع حتى يبلغ شفتيه فلا يكاد يمد لسانه للماء حتى يهبط الماء.. ولا يزال الرجل ينحنى حتى يبلـغ الماء صدره وركبتيه وقدميه ثم تبتلعه الأرض.. فإذا نهض واقفا عاد الماء فارتفع إلى فمه.. وهكذا.. إنه وسط الماء ولا يستطيع أن يتذوقه..

إنها أرادت أن تجعل هؤلاء الشبان جميعا يتعذبون نفس العذاب.. إنها تلبس أروع ما عندها، وتعرض نفسها عليهم.. فلا يكاد أحدهم يقترب منها

حتى تبتعد.. انها تسمع آهاتهم وصراخهم فى كل مكان.. فى الشارع.. فى المطعم.. فى السينما.. فى نافذة بيتها.. ووجدت متعة أخرى.. هى تعذيب زوجها.. انها لم تعد تسمع آهات الناس وحدها.. وإنما حرصت على أن يسمع زوجها العجوز هذا كله بنفسه.. إنه هو الآخر يجب أن يتعذب، يجب أن يتألم، يجب أن يندم.. لماذا تتعذب وحدها.. لماذا تتألم وحدها.. العذاب لزوجها وكل الناس.. إن أحدا لا يرحم أحدا، فلماذا ترحم الناس..

ولكن زوجها كان عجوزا وكان عاجزا عن الحب وعن الكره وعن الندم وعن الاساس بالعذاب..

مهما صنعت فإن زوجها لن يتعذب. وهذا مما يزيد فى عذابها.. انها وحدها التى تتعذب..

وانفصلت عن زوجها..

أعطاها بعض المال، وتركته.. وسكنت وحدها.. وضاقت بالوحدة.. وقررت أن تكون مع الناس أى نوع من الناس.. انها امرأة بلا أمل فى شىء، بلا أمل فى أحد، إنها لم تعد تتوقع شيئا من الناس كلهم.. ستعيش بلا إحساس.. ولكنها ستعيش بلا كرامة.. لن تكون لها كرامة. ولن تكون لأحد كرامة. انها ستحتقر الانسانية كلها.. انسانية الناس وانسانيتها هى.. انها ستكون انسانا حقيرا تافها.. أنها تريد أن تسخر من الانسانية كلها فى شخصها.. إن أى احتقار لها هو احتقار «للانسانية» فيها.. لانسانية كل الناس..

لن ترفع عينيها إلى وجه أى إنسان يجلس إليها أو معها.. كل الناس سواء.. كلهم متساوون فى الاحتقار.. فى احتقارها لهم أو احتقارهم لها.. إنها لن تنتحر بعد ذلك.. ستعيش حياة هى انتحار طويل.. انها لن تنتحر.. فالانتحار معناه أن لها إرادة.. وأنها إنسان.. ولكنها ليست إنسانا، إذن

فلا إرادة لها.. والانتحار هرب من الناس.. ولكنها لا تؤمن بوجود الناس.. ولذلك فهى لا تهرب من مجتمع لا أحد فيه..

إن شعارها الآن هو: كانت الناس فيما مضى سجائر.. أما اليوم فهم «أعقاب» سجائر.. على الأرض يدوس بعضهم بعضا.. وشعارها هى: جمع أعقاب السجائر من كل طريق ومن كل مكان ليلا ونهارا.. وستلبس فستانها الأحمر.. إنه نفس الثوب الذى يلبسه المحكوم عليه بالاعدام.. وهى محكوم عليها بالاعدام.. وقررت هى وقف التنفيذ..

هذه قصة سعادات أو تعاسات.. سيسمعها من يريد من الناس أى يوم فى شارع سليمان باشا.

اسمح لى أنصحك

أنا أنصحك معتمدا على تجاربى، وعلى مـا قـرأت، ومـا سـمعت وما رأيت.. وكل هذا الذى سأقوله لك أنا مقتنع به، وقد يجىء اليوم الذى أغير فيه آرائى.. فقد أحس أنها ضاقت علـى.. كمـلابسى.. والانسـان كلما تقدمت به السن اتسعت ملابسه وطالت.. وكبرت قدماه، وكبرت أفكاره أيضا.

أنا أقول لك رأيى فى الحياة.. إن هذه الحياة التى نعيشـها يجـب أن نعيشها، ويجب أن نقاوم وأن نكافح الموت فى صـوره.. فـالفشل مـوت، والخوف موت، والاستسلام موت.

يجب أن تعيش هذه الحياة.. يجب ألا تحنى رأسك إلا للشىء العظيم، للشىء الصادق..

ورأيى فى الناس..

أنا أقول لك رأيى فى الناس.. فالناس فيهم ضعف وكذب ونفـاق.. وكل إنسان فيه نقطة ضعف لا تكاد تقرب منها حتى يصرخ أو حتى تمتد يـده إليك فيضربك أو يقتلك.. كل إنسان فيه نقطة ضعف..

هل تعرف حكاية «كعب أخيل؟».

«أخيل» هذا اسم بطل يونانى، يقال أن الآلهة قد غمسوه فى بحر. ويقال أن من ينزل هذا البحر يتغطى جسمه بطبقة من الفولاذ لا تنفذ منها السهام ولا السيوف.. ولا الموت.

وكان لهذا البطل أعداء، وحاول أعداؤه أن يجدوا نقطة الضعف فيه فلم يجدوها، ولكنهم يؤمنون بأن كل كائن فيه نقطة ضعف..

وأخيرا وجدوا نقطة الضعف!.

هل تعرف أين؟ إن الآلهة عندما غمسوه فى ماء البحر كانوا قد أمسكوه من قدميه، فلم تبتل قدماه بالماء.. فظلت قدماه عاريتين من هذه الطبقة الفولاذية.. وأطلقوا سهامهم على كعب البطل أخيل.. ومات البطل.. لأن فيه نقطة ضعف.. لكل إنسان نقطة ضعف فى يده أو فى جيبه أو فى قلبه أو فى عقله أو فى ماضيه أو فى مستقبله..

والناس فيهم غرور..

فكل إنسان يتصور أنه أحسن من غيره، وأنه وحده القادر على كل شىء.. وكل فتاة ترى نفسها جميلة.. الجسم والعقل والملبس، وأنها تستحق أن تكون عروسا لأغنى وأجمل وأقوى رجل فى العالم..

ولأن الناس فيهم غرور .. فهم يتصورون أن الآخرين أو أن غيرهم من الناس لا قيمة لهم ولا وزنا..

ولأن الناس فيهم غرور.. يتصورون أنهم لا غنى عنهم. فإذا كان واحد يعمل فى مكان وترك هذا المكان، فهو يتصور أن هذا المكان أو هذا المكتب أو هذه الشركة، أو هذا المصنع، سينهار يوما بعد يوم، وهو لذلك حريص على أن يسمع أخبار المصنع أو الشركة.. إنه يتوقع حادثة من

الحوادث، مأساة، أزمة، يتوقع حريقا يصيبه.. لماذا؟ لأنه هو لا غنى عنه. ولماذا؟ لأنه مغرور!

والناس فيهم نفاق، كل الناس..

إن النفاق معناه أن رجلا لا يريد أن يصارحك برأيه، ولماذا لا يصارحك؟ لأنه يخاف منك، لأنه يتقى شرك، ومعنى ذلك أنه يتصور أنك شرير أو أنك مؤذ.. فهو يخاف على نفسه منك، ويلتقى بك فى منتصف الطريق. والنفاق معناه أن رجلا يمدحك ويملأ نفسك بالغرور.. إنه ينفخك كما تنفخ عجلات السيارات.. وبذلك تسير أنت وتسير حياتك. بلا ضوضاء.. أليست عجلاتك منفوخة بالغرور. إن الذى ينافقك لا يتعب، فالنفخ لا يكلفه أكثر من الكلام، ولكن النفاق يضرك إذا صدقته كله.. والانسان يصدق عادة القليل من النفاق.. فأنت منافق، والناس كلهم مثلك..

هل تريد رأيى فى الأصدقاء؟.

لابد أن يكون لك أصدقاء ولابد أن تحسن اختيار الأصدقاء. إن الحياة بلا صداقة ولا حب صعبة قاسية.. إنها باردة تماما كالنوم على الرصيف أو فى الشارع.. والأصدقاء هم النور والهدوء وهم الرصيد الذى تضعه فى البنك لمواجهة الأيام السوداء..

وإذا تحول الأصدقاء إلى أعداء فهم أقسى من كل الأعداء لأنهم يعرفون عيوبك ويعرفون مزاياك.. انهم كالجنود الذين ينتقلون من معسكرك إلى معسكر الأعداء.. إنهم يعرفون مداخلك ومخارجك.. وأين ترابط قواتك وطائراتك وأوهامك وأحلامك وشجاعتك وخوفك..

والمثل القائل أنه يجب أن تعتدل فى صداقة أصدقائك فقد ينقلبون أعداء، ويجب أن تعتدل فى عداوة أعدائك فقد ينقلبون أصدقاء، هذا المثل صادق تماما.

وأنت سيكون لك أعداء دائما..

ولكن أقسى أعدائك جميعا هو أنت.. لا تجعل من نفسك عدوا لنفسك.. لا تسخر من نفسك.. لا تهزأ بقدرتك.. لا تهزأ بمواهبك.. لا تيأس فاليأس معناه أنك لا تصلح لشيء، لا تصلح للمقاومة. اجعل نفسك صديقا لك.. اعتمد عليها.. اعطها الثقة وبذلك تضم صديقا إلى أصدقائك، وتحرم أعداءك عدوا قاسيا يعرفك، ولا يتركك ليلا ونهارا..

وأقول لك رأيى فى المرأة..

المرأة هى أمى وأمك وأختى وأختك، هى زوجتك وهى ابنتك.. إنها نصف المجتمع أو أكثر من النصف، إنها إنسان لم يعط بعد الفرصة ليكون له تجارب وقدرة على الكفاح وعلى الحياة القاسية..

والمرأة كصديق وزوجة لابد منها..

لا غنى عن المرأة أبدا، ولابد أن يكون لك امرأة.. لابد.. إنك إذا لم ترد ذلك صرخت أصوات عالية مدوية فى جسمك وعقلك، وفى المجتمع الذى تعيش فيه..

ولكن لا تجعل المرأة كل حياتك، مهما كانت..

لا تعط أمك كل الوقت، ولا زوجتك ولا حبيبتك.. أبدا.. اعطها بعض الوقت. إن المرأة تكره الرجل الذى يعطيها كل وقته، وتكره الرجل الذى لا يعطيها شيئا من وقته..

اعطها بعض الوقت، لكى تطمع هى فى الزيادة، لكى يكون عندها أمل فى أن تراك أكثر، وأن تجلس إليك أكثر.. اجعل المرأة على أمل دائما، اجعل المرأة تفكر دائما فى أن تكون لك.. تملأ عينيك، وأذنيك، وقلبك وحياتك..

لا تبحث عن الحب.. إنه سيبحث عنك.. وسيزورك. مرة زيارة عابرة، ومرة أخرى زيارة طويلة، ثم يهبط عليك فجأة ويبقى عندك إلى الأبد.. لابد من الحب.. ولكن الحب الذى تراه فى السينما وتقرأ عنه فى القصص، ليس

هو الحب.. إنما هو لحظات من الحب.. لحظات حادة.. من الحب.. لحظات متحمسة.. والانسان لا يمكن أن يكون متحمسا طول اليوم، ولا طول العمر.. ولا يمكن أن يكون متحمسا فى أمر واحد طول الوقت، ولو كان ذلك هو الحب.

وعندما تنتهى هذه الحماسة سيتحول الحب إلى صداقة.. ثم إلى صداقة عميقة.. ثم إلى أخوة إلى زمالة تربطها العشرة الطويلة والتفاهم والأولاد والمشاكل والمتاعب.. هذا هو الحب..

وأقول لك رأيى فى الزواج..

الزواج هو أكمل علاقة بين رجل وامرأة فى مجتمع متحضر.. والزواج علاقة معقدة قاسية.. علاقة تتعرض للكسر والانفجار كثيرا.. ولذلك يجب أن تقوم على الفهم السليم.. ولا تتزوج من تلقاء نفسك.. وإنما يجب أن تستشير الناس.. وقبل أن تتزوج يجب أن تعرف الأساس الذى تتزوج عليه.. يجب أن تعرف الفتاة.. بل يجب أن تعرف نفسك أولا.. هل هذا الزواج لمجرد اللذة فى أن تكسب فتاة..؟ هل هو للانتقام من أبيك وأمك، أو من أبيها وأمها.. أو منها هى.. هل هو زواج المنفعة والمصلحة.. هل هو زواج بلا فهم ولا تقدير..

وإذا أحببت فأنت لست فى حاجة إلى مساعدة من أحد، ولا استشارة أحد. ولكن عندما تتزوج يجب أن تسأل الناس.

وشىء آخر وأخيرا..

هو: لا تصدق إننى أعرف أكثر منك.. ولا أفهم أكثر منك.. ولكن أنا إنسان لى تجارب رأيت وسمعت وقرأت، ولم أر كل شىء، ولا سمعت كل شىء.. وأنا أشتغل بالكتابة، ولو كنت اشتغل بعمل آخر، ما قرأت لى هذا الكلام..

ولا تصدق أن هناك رأيا قاطعا أو نهائيا فى أى شىء من الأشـيـاء.. فى الناس أو فى الحياة أو فى الحب.. كل الآراء تتغير بمرور الأيام واختـلاف الناس، وهذا الذى أقوله سيتغير يوما ما، ففكر أنت وجرب أنت..

ضائع فى القدس

هنا مدينة القدس.. فيها كل حجر له قصة يرويها رجال الدين ورجال السياسة ورجال الحرب.. وكل إنسان فى العالم.. هنا كنائس شهدت عيسى وأمه.. شهدته حيا وشهدته ميتا.. وهنا أرض وأحجار وجبال شهدت النبى محمدا فى طريقه إلى السماء.. وهنا تراب وحوائط ارتوت بدموع اليهود.. وهنا فقراء، بل أفقر فقراء العالم.. لا يعنيهم من هذا كله أى شىء إلا أن يأكلواويناموا.. إلا أن يلبسوا أحذية وأن يستروا لحمهم ودمهم.. إنك فى القدس لا ترى دموعا، فقد بكى هؤلاء الناس حتى جفت دموعهم وتوشك عيونهم أن تجف وأن تنطفئ..

هل يمكنك أن تتصور معى مدينة نصفها من العرب ونصفها من اليهود.. هل تتصور مدينة يسكن العرب النصف القديم الفقير ويسكن اليهود النصف الحديث الجميل.. وهل تتصور أن هذه البيوت الحديثة الجميلة التى يراها العرب بأعينهم، هى بيوتهم.. إنها بيوت العرب يسكنها اليهود.. هل تستطيع أن تتصور أن اليهود يؤمنون بأنهم على حق وأن هذه البيوت لهم، والأرض لهم، وليس من حق إنسان أن يعارضهم.. إنهم لصوص، ولكنهم أقوياء بأنفسهم وبغيرهم..

هل تستطيع أن تتصور بيتا يسكنه اثنان أحدهما يهودى والآخر عربى.. والبيت يملكه هذا العربى.. هل تستطيع أن تتصور قطعة من الأرض يملكها العربى، وشاءت القوة أن يتقاسمها مع اليهودى.. ويقف الفلاحان العربى واليهودى جنبا إلى جنب يحرثان ويرويان أرضا واحدة هى أرض هذا العربى الفلسطينى..

هل تستطيع أن تتصور أن عرسا يقام فى بيتين متجاورين يفصل بينهما خط الهدنة.. العرس فى بيت اليهودى والموسيقى فى بيت اليهودى والعرب يستمعون ويبكون لأن الأرض أرضهم والبيت لهم والحق معهم، والقوة عند غيرهم..

هل تستطيع أن تتصور عائلات بأسرها تعيش فى إسرائيل ونصف هذه العائلات يعيش فى الأردن، وأنهم لا يتزاورون إلا مرة كل سنة أو كل سنتين.. وإذا التقى أفراد هذه الأسرة الممزقة فإنما يكون ذلك فى ظل النار التى يحملها رجال الأمم المتحدة، المتحدة على الظلم..!

مدينة القدس أغرب مدينة فى العالم من أوله لآخره.. وفى أى عالم آخر إن كانت هناك عوالم أخرى.. مدينة لا منطق فيها، مدينة غير مفهومة، مدينة غامضة.. أوضاعها لا يستطيع عقل أن يعقلها ولا أن يفهمها وإذا فهمها فإنه لن يقرها، وإذا أقرها فإنه لن يفعل إلا خائفا أو ميتا..!

تصور مدينة يمر وسطها خط مزدوج من الأسلاك الشائكة تتسع وتضيق.. وعلى جانبى الأسلاك يقف رجال مسلحون ليلا ونهارا ينامون على الرمل ووراء الصخور.. ويرقب كل منهما الآخر ويحسب حركاته، ويعد أنفاسه.. إنها حالة حرب مستمرة..

تصور أيضا أنه يوجد فى القدس العربية منطقة بلا سلاح يسكن فوقها مراقب الأمم المتحدة.. السعيد المخمور دائما!

وتصور منطقة أخرى يوجد بها مستشفى وجامعة تسكنها حامية يهودية من ٨٥ جنديا.. وهذه المنطقة يهودية وفى قلب المنطقة العربية.. وتصور أيضا أن هذه الحامية المكونة من ٨٥ جنديا تتغير كل أسبوعين.. فيذهب هؤلاء اليهود إلى القدس الجديدة عن طريق بوابة يقف عليها اليهود والعرب.. ثم تحل محلهم حامية أخرى يحملون طعامهم وشرابهم ليحرسوا الجامعة والمستشفى ويحرس هذه القافلة جنود من الجيش الأردنى.. تصور هذا يجرى فى القدس العربية.. من المسئول عن هذا الوضع الشاذ.. يقولون الملك عبد الله ويقولون الانجليز.

لا تسأل الفلسطينيين فإنهم مجروحون حتى الموت.. وأنهم يكرهون الأردنيين.. ولا تسأل الأردنيين فهم يكرهون الفلسطينيين ويحسون أنهم عبء عليهم.. فالأردنيون يحرسون خطا من القتل طوله ٦٠٠ كيلو متر ويحتضنون مليونا من اللاجئين.. ومن السهل أن تقول أنها إنجلترا، وأن تكون صادقا فى هذا القول..

وتصور جالية يهودية كاملة فى مدينة نابلس. ويقال أن هذه الجالية مختلفة عن يهود إسرائيل.. ولذلك أطلق العرب الطيبون سراح هؤلاء اليهود يأكلون ويشربون ويتعبدون ولا يتعرض لهم أحد..

ما هذا؟ بلاهة؟ حماقة.. قل ما تشاء إلا أن تقول أنها كرم ضيافة وسماحة..!

ومعسكرات اللاجئين..؟

هل تستطيع أن تعرف معنى كلمة لاجئ؟

أبدا.. لن يستطيع إنسان فى العالم أن يعرفها ولا أن يحددها لغويا أو جغرافيا أو سياسيا أو إنسانيا..

إنها كلمة غريبة غامضة مخيفة محزنة..

هل تعرف الحياة التى يجتمع فيها الانسان والحيوان والنبات والجماد.. هذا هو اللاجئ.. لقد كان إنسانا، أما اليوم فلا.. فهو يعيش عيشة الكلاب الضالة..

هل تعرف الحيوان الذى ظل ضالا لا يدرى ما يريد ولا ما يراد له.. ثم سقط على الأرض بين الحياة والموت.. إنه ليس حيا، ولكنه مستمر كاستمرار الأشجار والنباتات.. إنه ينمو ولكنه لا ينتقل ولا يبرح مكانه.. إنه نوع من الأعشاب المتطفلة على الأرض وعلى الماء وعلى الهواء.. وعلى الوجود من أوله لآخره..

هل تعرف الشجرة إذا جفت وتحولت إلى قطعة من الخشب غطاها الرمل ونزل عليها المطر فأصبحت قطعة من الأرض يدوسها الانسان ولا يحس بها، ويراها ولا يلتفت إليها..

هذا هو اللاجئ.. وغير ذلك مما لا يمكن أن أصفه، وإن كنت أحسه إحساسا موجعا.

اللاجئ إنسان بلا مستقبل.. لأنه لا يعرف شيئا، إنه يسمع ملايين الخطب، ويرى ملايين الدموع، ولا تمتد إليه الأيدى.. وإذا امتدت كانت مرتجفة وكانت كليلة بخيلة..

إنه إنسان بلا معنى.. وإلا فقل لى ما معنى اللاجئ.. إنه ليس مواطنا، موطنه ضائع وأرضه ضائعة وبيته مسلوب. وليس حرا.. فالنار من حوله والقيود تتربص به وليس قادرا على فعل شىء، لأنه لا يملك شيئا.. وليس عبدا كذلك.. لأنه يستطيع أن يفعل الكثير من الأشياء.. يستطيع أن يجوع ويستطيع أن يبكى ويستطيع أن ينتحر ويستطيع أن يجتاز خط الهدنة فيتلقى فى جسمه رصاص العرب واليهود فى آن واحد..

إنه ليس سيدا لأحد، وليس عبدا لأحد، لأنه عبد لكل الناس فى الأردن وفى غير الأردن..

إنه إنسان خائف دائما إنه إنسان بائس أبدا.. إنه كافر بكل شيء.. ومن الصعب أن يؤمن بأى شيء فى الأرض أو فى السماء.. لماذا تطلب منه أن يؤمن؟ إن كل شيء يدل على الظلم! كل شيء يدل على أنه لا عدالة هناك؟ وإذا كانت هناك عدالة فأين هذه العدالة..؟ أين العدالة التى تحمى الأراضى المقدسة.. تحمى أرض عيسى ومحمد..

ولهذا تجد بين اللاجئين لصوصا، والجائع لابد أن يسرق.. وتجد مجرمين أيضا.. لأنه يخشى ماذا؟ يخشى من فى الأرض أو يخشى من فى السماء؟ إنه لا يخاف أحدا..

وتجد بين اللاجئين مؤمنين متهوسين.. لأنه ماذا يصنع العاجز ماذا يصنع الضعيف.. لابد أن يلجأ إلى من هو أقوى وليس أقوى منه إلا الأمل فى رحمة الله وعدالة السماء.. إنه هارب من الواقع المرير الدامى.. هارب إلى أحضان الدين، أى دين..!

إن الانسان لا يمكن أن يفهم وأن يحس وأن يتصور معنى الفقر الذليل البائس إلا فى مدينة القدس.. اذهب إلى المسجد الأقصى.. ادخل المسجد الأقصى من أى باب من أبوابه.. وسر فى الردهات الواسعة الهائلة.. وضع يدك فى أى جيب من جيوبك.. وانظر حولك قبل أن تخرج يدك.. كم طفلا وكم كهلا وكم مريضا وكم ضريرا وكم واحدا حولك؟ انظر إلى عيونهم.. إنها أجمل عيون فى الدنيا.. عيون سليمة صافية مغسولة بالدموع والأسى.. إنها ناطقة بأية لغة وبكل لغة. جوع وهوان ويأس.. كل ذلك يرضعه الطفل قطرة قطرة من ثدى أمه.. إنه ليس فى حاجة إلى أن يتلقنه من الأسلاك الشائكة ولا من المعسكرات ولا من الأسمال البالية، ولا من الدموع.. ولا من رجال الدين.. كل ذلك تراه فى لحظة واحدة فى أى عينين لأى طفل صغير أو كبير..

إنك تستطيع أن «تفك» ألف جنيه ملاليم وتلقى بها فى ردهات المسجد الأقصى فلا يبقى على الأرض منها شيء بعد دقيقة واحدة..

مدينة غريبة.. كانت مساجدها كنائس، وكانت كنائسها مساجد.. تجاورت فيها أقدام موسى وعيسى ومحمد.. ودماء ودموع وآهات أتباع موسى وعيسى ومحمد. وتحاربوا جميعا قرونا عديدة.. إنها أرض السلام والمحبة، التى لا سلام فيها ولا محبة..!

ورغم هذا كله تجد بيوتا جديدة وفنادق عديدة نظيفة كلها قد قامت تستقبل عشرات بل مئات السائحين من كل بلاد العالم.. جاءوا هذه البلاد ليحجوا إلى المدينة التى تضم حائطا واحدا يسمى مبكى اليهود.. والحقيقة أن كل حوائطها هى مبكى للعرب..

إننى حائر فى القدس.. بين العقل الذى يعجز عن الفهم، وبين القلب الذى تمزق وهو يخفق لكل مسجد وكل كنيسة وكل حجر.. وللعيون الحزينة والأفواه الجافة والملابس الممزقة.. إننى حائر لأننى بين أناس لا معنى لهم، أناس بلا مستقبل وبلا حاضر.. كل شىء هنا له معنى ولا معنى له.. إننى ضائع فى القدس..!

فتش عن المسامير!

إذا ذهبت إلى البيت ووجدت الهواء فاسدا، ووجدت الحجرات مظلمة، ووجدت وجوها صفراء ذابلة، وجلست إلى المائدة، ولم تجد للطعام رائحة، أو لونا أو طعما وجاءت زوجتك أو أمك أو أختك تحدثك فى أمر هام، فأحسست أن صوتها يكوى أذنيك، وأن كلامها سخيف، وأنك تتمنى لو كان ذلك حديثا فى الراديو يسمعه معك ملايين الناس ليعذبوا عذابك، أو لتقوم إلى الراديو فتقفله وتستريح من هذا الكلام، وإذا أحسست أن الوقوف على السلالم أحسن من دخول هذا البيت، وأن الوقوف فى الشارع أحسن من الوقوف على السلالم، وأن التطلع إلى وجه المارة والسيارات أجمل من التطلع إلى وجه زوجتك وأولادك وأمك وأختك وحبيبتك، إذا أحسست بهذا كله.. فأنت فى حاجة إلى شيء..!

وإذا ذهبت إلى مكان عملك وخيل إليك أنك مشدود من عنقك، أو أن هناك حبلا طويلا يربطك من معدتك، وأنه لولا هذا الحبل ولولا «الحاجة» ولولا الديون التى عليك، ولولا أن هذا العمل خير من التسول، لما ذهبت إلى هذا المكان المقرف، إذا أحسست بهذا كله فأنت فى حاجة إلى شيء..!

وإذا تركت البيت وتركت مكان العمل وذهبت إلى المقهى أو إلى المطعم أو إلى النادى تتردد كل يوم وأحسست أن وجوه الناس كالحة، وأن اصدقاءك عبارة عن ملابس ممزقة تتحرك كما لو كانت ألواحا خشبية، وأن عيونهم زجاج، وأصابعهم خشب، وأظفارهم مسامير، وكلامهم رصاص، وإنهم عصابة من اللصوص، وإنك فى غنى عنهم، بل الخير لك أن تبعد عنهم.. إذا أحسست بهذا فأنت فى حاجة إلى شىء.

وإذا ابتعدت عن أصدقائك فى المقهى والسينما والنادى، وذهبت إلى فتاتك إلى صديقتك إلى حبيبتك إلى خطيبتك، ورحت تنشد عندها الخيال والجمال والهدوء، وتطلعت إلى وجهها فلم تجد إلا خنادق سمراء تلمع فيها عيون صفراء، تظهر منها أنياب كلها صدأ، وإلا أنفا كأنه مقبرة أو كأنه صندوق تنام فيه الكلاب، وإلا شعرا كأنه مقشة، ولم يدخل أنفك إلا رائحة الورنيش الذى وضعته على حذائها، وعلى جلدها.. وإذا أحسست ببلاهتك وبسخافة المرأة وتفاهة عقلها،

وإذا أحسست أن المرأة لا يعجبها إلا كل تافه من الناس ومن الكلام وأنها لا يعجبها إلا الرجل الحيوان، أو إلا الحيوان وإذا أحسست أن صديقتك ككل امرأة تبحث عن الحيوان فى الانسان، أو تبحث عن الانسانية فى الحيوان، فتصادق الكلاب والقطط والخيول والحمير والقرود، وإذا أحسست أن الحياة يمكن أن تكون بغير صديقة أو بغير حب أو بغير عاطفة، وأن كل النساء سواء، الصديقة والزوجة والعشيقة والأم والأخت، إذا أحسست بهذا كله فأنت فى حاجة إلى شىء..!

وإذا هربت من هؤلاء جميعا وخلوت بنفسك.. ورحت تهرش رأسك بيدك، ثم رحت تهرش يدك برأسك.. وحاولت أن تنام فهرب النوم، وحاولت أن تصحو فهاجمك النوم.. وإذا أحسست أن القهوة السادة تأتى لك بالنوم، وأن اللبن الساخن يبعد عنك النوم.. وإذا حاولت أن تفكر فى مشاكلك، فى ماضيك أوحاضرك أومستقبلك، وأحسست أن رأسك بليد وأن أعصابك ميتة وأنك كمن يمسك مفتاحا قديما ويديره فى أحد الأقفال، فلا يدخل المفتاح

ولا ينفتح الباب.. وإذا أنت أمسكت ورقة وقلما، وأحسست أنـك لا تفـرق بين القلم والورقة، وأنك لا تدرى ماذا تكتب ولا من أيـن تبـدأ ولا كيف تنتهى إذا بدأت .. وإذا أمسكت التليفون ورحت تطلب صديقا لك لتشكو له بعض متاعبك وعذابك وسمعت صوت صديقك يقول: آلو.. وأنزلت السماعة، لأنك لا تجد ما تقوله ولأنك لا تثق فى هذا الصديق ولا فى أى صديق.. ولا حتى فى نفسك.. وإذا أحسست أنك لا تفرق بين ما يـدور فى اليقـظة أو النوم.. وإنك تخلط بين ما رأيته بعينيك وأنت مفتوح العينين، ومـا رأيتـه وأنت نائم، إذا أحسست بهذا كله، فأنت فى حاجة إلى شيء.

وإذا هربت من نفسك إلى الله.. ورفعت يديك إلى السـماء وأغمضـت عينيك، وفتحت قلبك وجمعت خطاياك كلها فى لحظة واحدة، وآمالك كلها فى لحظة واحدة، ثم لم تجد ما تقوله.. فأنزلت يديك إلى جوارك، وأحسسـت أن رأسك يدور وأن صورا كثيرة قد التفت حولك.. صورة زوجتـك وأمـك وإخوتك وأصدقائك وزملائك وحبيبتك وصورتك محمولا على أكتاف الناس، أو ملقى تحت أقدامهم أو تحت التـراب أو فى ريش المـلائكة، أو جلـود الشياطين..

أنت إذن محتاج إلى شيء واحد..

هذا الشيء هو الراحة..!

ولكن كيف تعرف ما يريحك.. كيف تعرف أن هذا يـريحك.. يجـب أن تعرف أولا مصدر تعبك.. الذى يتعبك! إذا عرفت مصدر تعبك، اسـتطعت أن تعرف مصدر راحتك.. إن أناسا يشـكون مـن الصـداع المسـتمر ولا يدرون لذلك سببا.. قد يكون سبب ذلك الامساك وقد يكون ضعف النظر وقد يكون تسوسا فى الأسنان.

إن كثيرا من الرجال قد وقفوا أمام المحاكم الشرعية والملية منـذ عشرات السنين يطالبون بالطلاق.. لم تكن هناك خيانة زوجية، ولم تكن هنـاك عـدم

قدرة الزوجة على انجاب الأولاد.. وإنما كان سببه أن الزوج يشم رائحة كريهة من فم الزوجة.. وكان ذلك قبل اختراع دواء الأسنان وعلاج اللثة وقبل وجود اللبان.. ووجود الصابون الذى يغير رائحة الجلد..

وكما أن هذه الرائحة لها علاج.. فكذلك كل رائحة كريهة : رائحة البيت ورائحة الأصدقاء والزملاء.. وكذلك إذا جلست وحدك وشممت رائحة كريهة، ثم نظرت إلى يمينك وشمالك فلم تجد أحدا.. فاعلم أنها رائحة أفكارك الراكدة وقلبك البليد.. وأنك فى حاجة إلى راحة..

ولكن اعرف أولا مصدر تعبك..!

أعجبنى أديب فرنسى عندما قال : إننى أشكو من صداع فى رأسى، أنه لم يكن الا مسمارا صغيرا فى طرف حذائى.. إنه صداع فى رجلى أو مسمار فى رأسى..!

اعرف مصدر التعب فى حياتك..

افتح النوافذ فى بيتك وافتح الأبواب وانتقل بزوجتك وأولادك أو صديقتك إلى أماكن جديدة، أو انقل إلى زوجتك وأولادك صورا جديدة من الناس أو من حياة الناس.

اذهب إلى مكان عملك وأنت على يقين من أن العمل والحياة شىء واحد.. وأن لا حياة بغير عمل، وأن الذين ينتظرون النجاح والمال فى بيوتهم، قد ظلوا فى بيوتهم واتجه النجاح والمال إلى أناس آخرين يعملون فى الشوارع.. وفى المكاتب وفى الهواء وفى الماء وتحت الأرض

اذهب إلى أصدقائك.. واعلم أن الحياة بغير أصدقاء مستحيلة.. فمعناها أنه لا حضارة ولا مدنية.. وأن الناس كلهم وحوش كاسرة وأنهم على استعداد لأن يأكلوك أو يحطموك وأنك تعيش فى أرض معادية وأنك فى حالة حرب مستمرة، ومعنى هذا كله أيضا أنك انسان مغرور، وأن كلهم

لا شيء وأنك أنت كل شيء.. أو أنك انسان ذليل وأن الناس جميعا هم كل شيء وأنت لا شيء..

أما إذا خلوت إلى حبيبتك وأحسست أنها هي الأخرى عذاب، وأنها هي الأخرى مصيبة سقطت فيها أنت أو سقطت هي عليك، وأنك تستطيع أن تعيش بغير امرأة.. بغير أم أو زوجة أو حبيبة، فاعلم أنك تقاوم ما هو أكبر منك: تقاوم نفسك وتحاربها وأن هذه هي حرب خاسرة.. الخاسر فيها أنت، وأن الانسان لا يقوم بمثل هذه الحرب إلا إذا كان قد دبر لنفسه الانتحار، ولا يقدم على الانتحار إلا هارب، ولا يقوم بالهرب إلا عاجز، ولا يبدو هذا عاجزا إلا من كان متعبا.. فأنت إذن متعب، وأنت إذن تحتاج إلى راحة..

فابحث عن مصدر التعب، وضع أصابعك عليه.. واضغط على مصدر التعب، كأنك تضغط على زرار.. تنطلق الأنوار في حياتك، وفي بيتك وفي مكتبك وبين أصدقائك وفي وجه حبيبتك.. وفي نفسك..

.. والماء الساكن يتغير لونه وطعمه ورائحته، والحجرة المقفلة يفسد هواؤها والبيت المظلم يستهوى الأشباح والعفاريت، والنفس المظلمة تفضل الموت على الحياة، والانتحار على الكفاح.. والاستسلام للتعب، لا البحث عن الراحة..!

فتش عن الشيء الذى يتعبك، قد يكون في حذائك وقد يكون في جيبك وقد يكون قريبا من الجيب قد يكون في القلب، وقد يكون تحت القلب في المعدة.. قد يكون في عينيك.. انزع هذا المنظار، وحطمه.. إنه أسود، وانزع هذا الحذاء.. ففيه مسمار..!

أوراق ضائعة

كان القطار من باريس إلى ميونيخ مليئا بالجنود الفرنسيين العائدين إلى منطقة الاحتلال الفرنسية بألمانيا.. وكان هناك ضجيج وضحك.. وكل المسافرين يتكلمون فى آن واحد ويسكتون فى آن واحد.. وكادت الأصوات تخنق أذنى.. ولكن همومى عزلتنى عن هؤلاء جميعا.. ولم أعد أسمع ما يقولون.. وأحسست أن درجة حرارتى قد ارتفعت، وأننى نائم، وأننى مريض وأننى فى حاجة إلى الهرب.. وتمنيت أن يدخل الصالون الذى أجلس فيه سيدة عجوز مريضة لا يكاد الجنود يرونها حتى يسكتوا.. وحينئذ أستريح وألقى بنفسى فى عالم النوم.. أو أتفرغ للرد على الأسئلة التى تزاحمت فى نفسى..

وأخذت أعاتب نفسى وأخاصمها وأحتج عليها.. وانا اتذكر ما كان فى باريس وفى روما وفى زيورخ.. وأحسست أننى كالشجرة التى تزاحم عليها النحل وراح يمتصها ويلسعها.. وكنت أنا والقطار نسير فى اتجاهين متضادين، هو يتجه إلى ألمانيا وأنا أعود إلى باريس.

وعند الحدود صعدت فتاة سمراء طويلة.. شعرها أسود وعيناها سوداوان.. وأنفها حاد، وشفتاها فيهما قسوة.. وأظن أنها جلست فى المكان

الخالى أمامى.. واعتدلت فى جلستى وكذلك فعل كل المسافرين.. ولاحظت أن شعر رأسى ينتفض كما تنتفض أسلاك التليفون التى يمر بها القطار..

ووقفت عينى عند الصليب الذهبى الذى تدلى من صدرها.. انه يلمع.. كأن الايمان ينفذ إلى قلبى.. أو كأنه أنوار كاشفة تبحث عن طائرات العدو التى استقرت فى عقلى.. أو كأنه مصباح أمسكه أحد قطاع الطرق ورفع مسدسا فى وجهى وقال: ارفع يديك.. واعطنى ما معك من كفر وشك..

وتذكرت «ماريا» إنها الآن فى باريس.. فى فراشها.. انها تصحو متأخرة من نومها.. وتتناول طعامها فى السرير.. وتنزل فى العاشرة.. وتذهب إلى مقهى أعرفه بالقرب من اللوكاندة التى أنزل بها.. وتنتظرنى هناك.. ولكنها لن تجدنى هناك.. انها فتاة اسبانية مدللة تؤمن بأن الرجال أمام الفلوس لا يفرقون بين القلب والمعدة.. ولا بين الأم والعشيقة.. ولكن فلوسها هذه لم تستطع أن تشترى اخلاص خادمتها، ولا حب أختها.. ولم تشتر لها الصحة.. وأنا أعلم أنه لا حب بيننا.. إنها لا تحبنى ولكن تتحدانى.. انها تضرب رأسها فى رأسى.. وتقول إن رأسى كله عظام جافة.. وأقول لها : بل رأسك لحم مائع.. انها نعمة لم تتم.. ولن تتم.. انها شىء يمر فى حياة الانسان فيلتفت إليه.. ويمضى فى طريقه !..

وأتطلع إلى عينى السمراء.. وهى ترفعهما عاليا عن الصحيفة وتنظر إلى سقف القطار.. أو ما وراء السقف.. وأغمض عينى لأرى سلسلة من الصور.. أو من التجارب العنيفة الحارقة.. مع «ليليان» فتاة روما.. فى السادسة عشرة من عمرها.. كلها أحلام وأوهام وخيال.. كل شىء عندها له أجنحة.. كلماتها طائرة، وأفكارها عالية.. أنها تضع الريش فى كل كلمة وفى كل فكرة.. حتى أكاذيبها طائرة سامية أوسماوية.. ولكن أين أنا من هذا؟ أين جسمى الثقيل، وأين أهرب من الأرض التى ولدت عليها وسأعيش فوقها وأعود إليها.. كل شىء عندها جميل.. المارة وهم يسرعون خطاهم.. كلهم ذاهب إلى لقاء حبيب.. والمارة إذا ساروا على مهل.. انهم يستمتعون

بعذاب الانتظار.. إننى كنت معها من سكان المريخ.. أرى الكرة الأرضية تافهة مظلمة.. لا تساوى أن يبقى فيها الانسان طول حياته.. وتقول إن الناس تفكر بأرجلها.. بأفكارها.. كلها تراب.. ولا تفكر بروؤسها العالية فى الهواء بعيدا عن الأرض..

ولم أعرف لماذا دار هذا كله فى رأسى وأنا جالس أمام هذه السمراء.. أهو الندم.. أهو الألم أهو اليأس..؟ أهذه السمراء هى الجزيرة المسحورة التى يقولون عنها.. ويقولون ان السفن إذا اقتربت منها فانها تسحبها وتشد مساميرها وسلاسلها فإذا هى تتحطم وتصبح ألواحا مفككة غارقة فى الماء..

لا أعرف!.. واتفقت مع «ليليان» أن تظل هى فى المريخ، وأبقى أنا فى الأرض.. وألا أراها بعد ذلك.. وأن أتحدث إليها فى التليفون.. وأن أراها فى أحلامى.. وأن ينسى كل منا الآخر.. ووافقت على ذلك.. ومنذ أيام تلقيت منها خطابا تقول فيه: لقد نسيتك تماما!!

وفجاة أحسست بأصوات شديدة تدفع أذنى كما يتدافع الناس على أبواب السينما.. وتلاشى الصوت.. ولم أعد أستمع إلا لصوت داخلى يقول: ما الذى جعلك تقول هذا الكلام السخيف أمام سيدات جميلات.. لماذا قلت هذه العبارة.. لماذا قلت: أن أحسن الزوجات، زوجات الآخرين.. أنا أعرف أنك تقصد معنى خاصا.. ولكن من الذى يفهم هذا المعنى بوضوح.. لقد أغضبتها.. ألم تلاحظ ذلك؟ لقد كانت تنظر لك نظرة بريئة من تحت جفنين ثقيلين.. وكنت أقول لنفسى: كنت أريد أن أقول أن الزوجة تلد بعد شهرين من الزواج أول طفل لها.. ذلك الطفل هو الملل.. فالزوج يمل زوجته.. والزوجة تمل زوجها.. ويحاولان معا أن يتغلبا على هذا الملل.. فهو السوس الذى يأكل من لمعان العيون وورد الخدود، وابتسام الثغر، والوفاء والحب.. والزوجة السعيدة.. ويذهب الزوجان معا إلى الاصدقاء.. فترى الزوجة أن الناس جميعا أكثر لمعانا من زوجها، وأخف

دما، وأكثر مرحا، وأجمل وأروع.. ويرى الزوج أن كل الزوجات أكثر حيوية من زوجته، وأكثر شبابا، واناقة.. وتحس الزوجة أن كل أصدقاء الزوج فاكهة.. وان الزوج طعام عادى.. وفى يوم تقول لزوجها إن الطبيب نصحها باتباع «رجيم» جديد وهو أن تتناول الفاكهة.. وأنه لا داعى للطعام.. ويقول الزوج نفس الكلام..

فهل أخطأت أنا؟.. إن أحسن الزوجات، زوجات الآخرين وإن أحسن الأزواج، أزواج الأخريات.. إننى لم أخطئ.. ولكن كل ما هنالك أننى أسأت اختيار الوقت لتفجير هذه القنبلة.. التى تطايرت شظاياها فى وجهى.. فشوهتنى أمام عينى «سيلفانا».. لماذا؟ لأن المرأة لا تحب الحق.. ولم أكن أتصور ذلك قبل اليوم.. ولكن لماذا تغضب سيلفانا؟ إنها ليست زوجة أحد لعلها فكرت بعقلية زوجة المستقبل.. والمرأة عندما تبلغ الخامسة من عمرها تتصور نفسها أما، فإذا بلغت السادسة عشرة تصورت نفسها زوجة.. فإذا بلغت الثلاثين تصورت نفسها طفلة صغيرة.. إذن هى حماقة وسذاجة.. إننى أغيب عن وعيى هكذا.. فلا أحس بمن حولى.. ولا بمن أمامى فى القطار..

وتطلعت إلى السمراء.. كأننى أتطلع إلى «فهرس» كتاب غريب.. كلما مررت على سطر انطلقت قصة أو آهة من فمى وارتفع الستار أمام عينى عن قصة قديمة.. ولكن لم أعرف هذا الشعور الذى يغمرنى بدخان كثيف كدخان القطار.. وعاودنى الندم مرة أخرى حين تذكرت ما قلته لسيدة عجوز اسمها «ليشلين».. إنها تزوجت رجلا اكتشفت بعد سنوات أنها لم تكن تحبه فعلا.. وأن الأيام أكدت لها هذا المعنى.. وقد جاء هذا الاكتشاف بعد حادث غريب.. فقد سقطت بها الطائرة.. وأدى السقوط إلى أن تطاير الصدأ عن قلبها وعقلها.. وإلى أن تنبهت حواسها جميعا.. وأدركت بقوة أنها كانت نائمة.. وأنها كانت تحدث زوجها عن الحب وهى نائمة، وأنها أنجبت أربعة من الأولاد فى الحلم وليس فى اليقظة.. وانتقلت

إلى المستشفى وأحبت أحد الأطباء.. وقررت أن تتزوجه. ولم يدر الطبيب بهذا القرار.. ولكنها قررت ذلك.. وسألتنى عن رأيى فى هذا القرار.. فضحكت.. وحطمت قلبها.. وندمت على الأوهام الجميلة التى يعيش فيها الناس.. هذه الأوهام هى المظلات التى يهبطون بها من السماء إلى الأرض، فإذا نزلوا إلى الأرض حملوها مرة أخرى لتقيهم من المطر والشمس.. أما أنا فبلا أوهام ولا مظلات.. إننى أنظر إلى الناس.. وكأنهم نائمون تحت الأشعة.. فلا أرى إلا لحما وإلا عظما.. وإلا كذبا وإلا نفاقا وخوفا . وكل شىء يولد فى الخوف والقلق. كذب فى كذب.. كل هذا دار فى رأسى فقلت لها : إنك تريدين أن تنتقمى من زوجك الأول.. وتريدين تركه والزواج من إنسان آخر.. وهذا الآخر ستعذبينه فأنت تريدين الانتقام منه هو الآخر. ومن كل الناس.. ولكنك شقية على الحالين شقية.. شقية قبل الحادث وشقية بعد الحادث وأنا أنصحك أن تنتقمى من إنسان واحد فيستريح اثنان.. هذا الانسان هو أنت.. موتى بيدك أشرف لك من أن تموتى بيد الجلاد !..

ولكن..

أكان ذلك الذى أحسست به فى سويسرا منذ أربعة أعوام وهما.. أكان ذلك خرافة.. وهذه الدموع كذب.. وهذا الأرق الذى أصابنى.. وقلبى عندما كان يدق عاليا، أكان ذلك صداعا أصاب أحشائى.. عندما وقفت وسط الجبال الشامخة أصلى لأول مرة فى حياتى بين المقابر فى مدينة «زيورخ» وتوجهت إلى السماء أرفع يدين كأنهما جناحان.. وأنادى من هو أقرب منى.. ومنها.. تلك المسكينة الجميلة الشابة وحيدة أبويها التى لا أنطق باسمها.. كانت دموعى كافرة بالقضاء والقدر.. وكافرة بالعدالة فى أى مكان.. أكان ذلك وهما..

لقد ركعت على ركبتى.. وتمنيت أن أسير هكذا حتى مدينة كراتشى فى الهند حيث انطفأت حياتها عندما احترقت الطائرة فى الهند..

لقد دفنت فى السماء لا فى الأرض، وكفنت بالنور لا بالقماش، وسار فى جنازتها الملائكة..

لم أتمكن أن أدور الأرض كلها أبكيها، وإنما الأرض هى التى دارت بى.. ما أشقانى بعدها.. لم يكن ذلك كله وهما، وإنما كان حقيقة كأنها أوهام أو خرافات أو هذيان لا يصدقه أحد..

ونزلت الدموع من عينى.. وتوقف القطار.. وسبقتنى الدموع إلى الأرض.. حيث دفنت أوهاما وأحلاما وإيمانا ونفسا وشبابا!..

أكان ذلك وهما.. أكان حقيقة.. كل شىء حدث بسرعة البرق.. وكل شىء فيه ضباب وظلام وخوف.. فالحب لا يعيش تحت السماء الصافية، ولا فى نور النهار.. انه يعيش فى الأوهام.. ولكن هناك حقيقة واحدة هى أنها ماتت.. وأنها تعيش مرارة على لسانى، ويأسا فى نفسى.. وبكيت!..

وعلى الرصيف وجدت السمراء ترمقنى بنظرة طويلة.. لا أدرى ماذا قالت.. ولا يعنينى ما دار فى رأسها.. إننى لا أعرفها.. بل ولم أرها.. إننى كنت أقرأ فى ملامحها عناوين الصفحات الضائعة من عمرى.. إننى لم أكن مسافرا واحدا بل كنت عشرات المسافرين.. وعلى الرصيف وجدت أصدقائى..

ولما رأوا الدموع فى عينى.. بكوا أيضا.. ولكن لفرحة اللقاء!

كأس واحدة

الحياة كأس من الخمر.. هناك أناس ينظرون إلى الكأس ويلمسونها، يعجبون بشفافية الزجاج.. وهناك أناس آخرون يمسكون الكأس ولا يلتفتون إلى الزجاج ويفرغون الكأس فى أفواههم ويطالبون بكأس أخرى، لأن الأولى قد انكسرت..

ولكن إذا نظرت إلى الكأس مرة أخرى تجد أنها كلون الخمر.. أو تحس أن الخمر قد تحول إلى زجاج، أو الزجاج الاحمر قد تحول إلى خمر سائلة.. والفرق بين الكأس والخمر، هو جدار رقيق شفاف.

إذا لم يكن الكلام كله مفهوما، فحاول أن تجد له معنى من هذه القصة الحقيقية.. أو هذا الحوار الحقيقى بين صديقين.

أما الصديق الأول فهو من أبطال الرياضة وأما الصديق الثانى فهو من مشاهير الفنانين.. والأول صناعته الأجسام، كيف يقويها وكيف يضعها فى أفران الشمس حتى تستوى وتغطى بطبقة نحاسية، هى لون الصحة والعافية.. والثانى صناعته الأجسام أيضا، كيف يرسمها ويلونها ويضعها عارية فى حجرته، ويغطيها ويعريها وينقلها إلى الورق الأبيض أو القماش الأبيض، ويعطيها ألوان الفن والجمال..

صناعتهما هى الأجسام..

وفى يوم من الأيام جلسا على شاطئ النيل يتحدثان فى السياسة وفى أخبار الأدباء والسينما. وفجأة اعتدل الصديق الرياضى وقال: يا أخى أنا والله مللت هذا النادى الذى أقضى فيه كل ساعات النهار ومعظم ساعات الليل.. مللت هذه الأجسام العارية. مللت شكل العضلات والأكراش والقفوات. إننى أعيش فى حديقة حيوانات كلها متوحشة.. هذا يضرب يده فى الحائط، وذاك يضرب رأسه فى الخشب، وذاك يتلوى كالأفاعى، ذاك يقفز كالقرود، وذاك يفتح فمه ويقفله كالتمساح.. وهذا يخفى بطنه، وذاك ينفخ صدره، وهذا معلق فى الهواء، وذاك تحت الماء.. أعوذ بالله .. يا أخى إن الانسانية تتحول إلى حيوانات عارية سافرة فى هذا النادى.. وهنالك ألفاظ لا معنى لها.. إنها مجموعة من الأصوات.. كأصوات الوحوش تماما.. هل تعرف معانى هذه الكلمات: حلطه طلطه بطظه بروش وفشن شنكح بركح لكح.. ما معنى هذه الكلمات إنها يا أخى أسماء أناس ولا تذكر حتى تتعالى الضحكات فى الغابة، فتظهر تماسيح الماء، وتقع قرود الشجر..

وقال الفنان: وإيه يعنى؟

وقال الرياضى: ماذا أعوذ بالله.. يا شيخ أنا كفرت؟ أستغفر الله العظيم.. ولكن الحمد لله!

ـ الحمد لله على ماذا؟ ماذا تحمد الله عليه؟

ـ على الصحة أولا..

ـ هذا شىء يستحق الحمد والشكر وثانيا تحمد الله على ماذا؟

ـ أيوه دخلنا فى الموضوع.. أنا لا أخفى عنك أننى عرفت سيدة.. هى كل شىء فى حياتى، هى نعيمى، إننى أترك النادى فى خفة العصفور ونفخة الديك الرومى، وأنتظرها صابرا ساكنا، كأننى «عباد الشمس» ثم تجىء

هى كالنعامة تتبختر.. آه هذه هى الجنة يا حضرة الفنان.. كل شــىء فى جسمها مغطى.. حتى وجهها مغطى بنقاب رقيق، شعرها، يداها، ذراعاها، كل شيء مغطى.. وأنت لا يسعك إلا أن تحلم بما وراء هذا الغطاء.. أعوذ بالله من الحيوانات التى أعيش معها.. أعوذ بــالله.. وهنــاك نجلس معــا نتحدث فى أشياء لا تخطر لك على بال.. نتحدث عن المنــاديل والجــوارب وآخر الموديلات وسعر الروائح.. وأنا أموت فى هذه الأحاديث الصغيرة.. هل تتصور أنها لا تسألنى عن كرة القــدم ولا كرة الســلة ولا كرة الــطاولة ولا كرة الماء.. ولا أى كرة فى الأرض.. ولكنها تسأل عن كرة واحدة.. إنها تتحدث عن القمر. تلك الكرة التى تلعب بها الملائكة فى الفضاء بين الشرق والغرب.

ـ الله أكبر.. الله أكبر، هذا شعر!

ـ انتظر لحظة.. هل تصدق إننى لم أرقص معها، لم ألمس يدها.

ـ لم تقبلها حتى فى يدها؟

ـ انتظر والله..

ـ الله أكبر .. اللهم اجعله خيرا.. ما هذا يا صديقى؟ ومن هذه السيدة صاحبة المعجزات والكرامات.. يا أخى والله يا بختك!

ـ والله أنا أحسد نفسى.. الحمد لله على هذا الملاك الذى جعل دنيــاى الوحشية دنيا أخرى طاهرة.. إننا نعيش فى عالم الفن والمــلائكة.. هــذا العالم الذى تعيش فيه أنت!..

يا شيخ فال الله ولا فالك.. فن إيه وزفت إيه – أنت كده عال والله أنت فى نعيم لا نهاية له.. الفن هباب فى هباب!

ـ ما هذا.. هل تريد أن تقول أن عالم الفن الجميل يشبه أحــدا مــن التماسيح وأقفاص القرود التى انتشرت فى النادى الذى أعيش فيه!

ـ أقسم بشرف ...اننى أفضل هذه الحياة الحيوانية على أيـة حيـاة أخرى..! ما هذا الفن الذى تتصور أننى أعيش فيه.. إننـى أعيش مـع الحبر الأسود والحبر الأبيض والجبس والجير والمساطر والأقلام والورنيش وأظل طول النهار أهرش بفرشاة من الخشب فى ورق أبيض وأمامى فتـاة عارية مريضة متسولة مسكينة.. تجلس أمامى وتتقلب وتتأوه .. وقد امتلأت الحجرة برائحة الزيت، زيت الخروع.. لقد مللت هذا المرض ومللت هـذا الزيت، ومللت رائحة الجير والجبس والورق والقرف.

إن الدنيا واسعة، وأنا أعيش فى سجن لا أستطيع أن أتـركه.. سـجن ضيق، ومعى فتاة مريضة وجردل مملوء بزيت الخروع.. أنا أريد الفضـاء الواسع.. الماء والهواء والشمس.. أريد الصحة التى حرمت منها.. أريـد الحياة حية من لحم ودم، أريد أن ابتلع المياه، وأقذفها ثانية دون خـوف لأن المياه لن تنتهى.. أريد أن أكون ذا قـوة وعضـلات.. أريـد أن آكل الحجر والشجر.. وأملأ صدرى ومعدتى وفمى، أريد أن أصـعد الشـجر وأغوص فى الماء وأمشى على يدى وأزحف على بطنى.. أريد أن أحمل طنا من الحديد، أريد أن أمسك أعواد الحديد كما أمسك أعواد القصب.. مللت هذا المرض والألوان وزيت الخروع!

ـ ما الذى جرى لك؟

ـ اسكت لا تقاطعنى.. لقد آن الأوان لكى أترك صناعة الورنيش.. أريد أن أعيش الأعوام التى بقيت لى من حياتى.. كفى هذه الخـطوط وهـذه البقع.. وحياة الأشباح والعفاريت إننا نحن الفنانين لـدينا ألفـاظ غيـر مفهومة، ألفاظ بلا معنى كألفاظكم تماما.. هل تعرف مثلا معنى: داريـازم وسيريالزم وكوبيترم وفالسكبريت وجويا وبويا.. كل هذه أسـماء مـذاهب وفنانين وهى إلتى نرددها طول النهار وطول الليل.. يا أخى أنا كفرت فعلا من هذه الحياة.. ولكن فى الأيام الأخيرة التقيت ببنت الحلال.

ـ الحقنى يا صديقى الحقنى.. من هذه بنت الحلال.

ـ بنت الحلال؟ بنت الحرام؟ إنها سيدة، إنها فتاة لا أعرف.. إنها تنقلنى من عالم المجانين الذى أعيش فيه إلى عالم البشر.. إلى عالم الصحة والعطر والزهر والورد والخمر والرقص والطرب.. كل ليلة ألتقى بها ونعيش فى ليالى هارون الرشيد.. تجىء بصدرها البارز وعطرها الساحر، وذراعيها العاريتين، وثوبها المشدود حولها وكأنه يعانقها أو كأنه يغار منه فيمسك بها.. فلا أصباغ إلا أصباغ الشفاه، ولا رائحة إلا رائحة أذنيها وشعرها، ولا مرض إلا مرض جفنيها القاتلتين.

وسكت الصديقان وجعلا ينظران كل منهما للآخر.. هذه هى الحياة يا عزيزى ولكننى لم أعرفها إلا منذ أيام! ثم تحدث الرياضى وسأله الفنان:

ـ حاجة غريبة.. غريبة!

ـ ماذا؟

ـ الكلام الذى نقوله نحن الاثنين.. إننا لم نتحدث قط فى شىء مثل هذا؟

ـ إننا التقينا عند السور الذى يفصل بين عالمى وعالمك.. عالم الأوهام والأشباح والخطوط والحبر والجير، وعالم الصحة والعافية والهواء والماء والوجه الحسن.. إننا تبادلنا أماكننا.. أنت ستترك لى مكانك فى عالم الصحة والواقع، وأنا سأترك لك مكانى فى عالم المرض والوهم وزيت الخروع

وسكت الصديقان.. ثم وقف الرياضى فجأة وقال: لقد اجتذبنا الحديث، ونسيت أن أقول لك إننى على موعد..

ـ مع بنت الحلال صاحبة الكرامات؟

ـ إنها قادمة هناك !

والتفت الفنان إلى صاحبة الكرامات وجعل يضحك ويستغرق فى الضحك.. فذهل الرياضى وسأله : ما الذى يضحكك. والله ما الذى يضحكك ؟

أبدا لا شىء.. هل تعرف حكاية الكأس والخمر.. أنت لمست الكأس، أما أنا فشربتها. أنت نظرت إلى الكأس وأنا كسرتها.. أنا الخمر وأنت الكأس، والفارق بيننا زجاجى شفاف !

فقال الرياضى : لم أفهم.. أرجوك قل بسرعة !

فأجاب الفنان : إن هذه السيدة التى حدثتنى عنها، هى السيدة التى حدثتك عنها !

رقصة الدب.. !

ألم تر «دبا يرقص؟ هل تعرف كيف تعلم فن الرقص؟

إن صاحب الدب يضعه فوق ألواح ساخنة من الصفيح فلا يكاد يقف الدب فوقها حتى يقفز ويرفع رجليه ويديه.. حتى لا يحرقه الصفيح.. ولا يزال صاحب الدب يأتى به إلى الصفيح الساخن حتى يتعود الدب القفز.. وبعد ذلك يجيء بالدب ويضعه فوق ألواح الصفيح، ثم يروح يعزف نغما موسيقيا إلى أن يتعود الدب أن يقفز وهو يسمع هذا النغم..

وفى آخر الأمر، يتعلم الدب كيف يقفز وكيف يرقص تمشيا مع النغم الموسيقى.. دون حاجة إلى صفيح ساخن!

فإذا رأيت دبا يقفز يمينا وشمالا فاعلم أنها ليست البراعة ولا الذكاء، ولكنها النار التى كانت تكوى قدميه ويديه!

إنها النار والنغمات والعادة!

وشبابنا وأطفالنا فى المدارس وفى البيوت قد مروا بمرحلة «الدببة» التى ترقص.. فالحرمان شديد، والجوع كافر، والعطش ممزق.. فالأرض تحت أقدامهم ساخنة ملتهبة فلا يستطيعون الوقوف عليها، فيقفزون ويهرجون،

ويرفعون أرجلهم، ويطوحون بأيديهم ويصرخون.. وفى اللحظة التى يصرخون فيها ويقفزون يسمعون نغمة واحدة من آبائهم وأمهاتهم هى : عيب يا ولد.. حرام يا ولد.. كخ يا شاطر!

ويكبر الطفل وهو يسمع هذه النغمة والأرض تحرقه، والحرمان يكويه.. فإذا هو خائف مرتعد وإذا به يحب الظلام ويكره النور، وإذا هو يسكن إلى الوحدة، ويرتعد من المجتمع وإذا هو يهرب من بنات حواء، ويعيش مع بنى آدم.. إنه الآن يرقص تمشيا مع النغمة، حتى دون أن تكون الأرض ساخنة تحت قدميه!

إن هذا الخوف ليس مصدره الأدب ولكن مصدره النار والنغمة وهذا الفزع ليس مصدره الفهم السليم، وإنما النار والنغم!

فإذا رأيت شبابا منعزلا منطويا خائفا جبانا، فلا تقل إنها الفضيلة ولا تقل إنه الدين، ولكنها النار التى كانت تكوى قدميه!

إنها النار والنغمات والعادة!

وإذا رأيت شبابا يقتل برجليه ويهلك بيديه.. فلا تقل إنهم مجرمون ولا تقل إن أمهاتهم ولدتهم والخناجر فى أصابعهم والرصاص فى أفواههم!

ولكنها النار التى كانت تكويهم منذ احساسهم بالحياة، والنغمة الواحدة المخيفة التى سمعوها ليلا ونهارا!

إنها النار والنغمة والعادة!

إننا نريد أن نحطم هذا «السيرك» الذى أقامه آباء خائفون وأمهات وأساتذة منافقون.

إننا نريد شبابا شجاعا جريئا ينظر إلى الحياة على إنها نعمة ومتعة وغاية ووسيلة لأن يحقق مثله العليا لا أن ينظر إليها على أنها نقمة وكارثة وعذاب.. فيقف منها خائفا مرتعدا منزويا.

إننا نريد شبابا يفخر بإنسانيته، ولا يخاف من بنى جنسه ولا من بنات حواء.. شبابا يحب النور، لأنه رمز الحضارة.. شبابا يعيش مع الناس، لأن العزلة بداية الموت.. شبابا عالما، لا جاهلا.. يفضل الموت وهو عالم، على الحياة وهو جاهل!

نريد حياة بلا خوف ولا يأس ولا شذوذ!

هل تعرف أن سكان الغابات لا يعرفون الشذوذ الجنسى؟ كل سكان الغابات فى أفريقيا وأمريكا الجنوبية وإستراليا؟

إنهم يسيرون عراة.. فالرجل يرى المرأة، والمرأة ترى الرجل.. ولا شىء يخفى على واحد منهم.. لا شىء، لا شىء!

إن السبب الوحيد هو أن الرجل والمرأة قريبان تماما لا شىء يفصل بينهما.. وكلما اقترب الرجل من المرأة، ابتعد الخوف والحقد والعداوة.

هل تعرف أن الجرائم الجنسية فى الريف، فى أى بلد من بلاد العالم أقل منها فى المدن؟

وسبب ذلك أن الاختلاط الجنسى قائم فى الريف.. فالرجل يعمل إلى جوار المرأة، وكل ما لديه من فراغ يشغله فى العمل.. واليد حين تعمل فإن الغرائز تنام.. فالرجل يرى المرأة وهى واقفة، ويراها وهى جالسة، وقد انكشف صدرها، وظهر ساقها، وتعرى صدرها..

ولعلنا نلاحظ على شواطئ البحار.. أن النساء بالمايوهات لا يلفتن النظر إليهن كثيرا.. فقد ظهر صدرها، وتعرت ساقاها وذراعاها، ولكن لو سارت امرأة على الطريق وأطار الهواء طرف فستانها، فإن الأنظار تلتفت إليها، مع أنها لو ذهبت إلى الشاطئ ولبست مايوها من قطعتين أو من ثلاث قطع، لكان اهتمامنا بها أقل، والتفاتنا إليها عابرا سريعا.

فكلما تعرت المرأة كان إغراؤها أقل..

بل إن الثوب ليظهر من المرأة أكثر مما يخفى.. فقد يكون خصرها كبيرا، ولكن الفستان يجعله صغيرا.. وقد يكون صدرها صغيرا، ولكن الفستان يجعله كبيرا .. وقد تكون ساقاها معوجتين، ولكن الفستان يسترهما.. فالفستان يغرى أكثر من المايوه..

ونحن نريد أن تتحول أفكارنا من «فساتين» طويلة تستر كل شىء إلى «مايوهات» موجزة تكتشف كل شىء.. وحينئذ لا يكون خوف ولا قلق ولا حقد ولا عداوة بين الفتى والفتاة!

إننا نريد أن نعيد عهد الغابة.. عهد الاختلاط بين الجنسين.. نريد عهد الغابة ولكن بصورة حديثة.. نريد حدائق عامة، ولا شىء إلا حدائق عامة..

إننا نريد أن يعرف الناس أن الحدائق هى مجتمعات فى الهواء الطلق كلها صحة وراحة ومتعة.. إن الحدائق كالرئة للجسم.. ومدينة القاهرة، وكل المدن المصرية رمم بالية بلا رئة.. إنها مخنوقة لأنها لا تتنفس.

هنالك ثلاثة أشياء تتحكم فى حياتنا كلها هى: الجوع والجنس والقوة!

فأنت لابد أن تأكل لتعيش، وأنت لابد أن تتزوج ليستمر الجنس البشرى ولابد أن تكون قويا لتتزوج ولتعيش.

ولكنك لا تستطيع أن تأكل ما تشاء فأنت تستطيع أن تسرق أو تخطف، فهنالك القانون..

وأنت لا تستطيع أن تعاشر أية امرأة تريدها فهنالك القانون وهناك الدين.

وأنت لا تستطيع أن تنال كل ما يجعلك قويا لأن هناك من هو أقوى منك، ولأن هنالك الدين وهنالك القانون.

ومن أبرز مظاهر القوة والاحساس بهـا عنـد الشـباب : الاحسـاس بالزعامة.. أو الرغبة.. فى أن يكون الشاب زعيما أو رئيسا، أو على الأقـل يتحمل المسئولية أو يشارك فى الرياسة أو الزعامة..

والذى ينظر إلى الأطفال وهم يلعبون يجد كل واحد منهم يصدر أوامره للآخر.. يصدر أوامر لها ضرورة أو بلا ضرورة.. ولكنه يصدر أوامر دائما..

وقد يلجأ الطفل إلى العنف والقسوة..

وقد يقاومه زملاؤه أو أبوه أو أمه أو المجتمع.. فيعمد الطفل إلى طرق ملتوية ليرضى هذه النزعة، نزعة السيطرة والتسلط على الآخرين!

ولكن لا شىء يهذب هذه النزعة أكثـر مـن النـوادى الـرياضية أو الجمعيات الأدبية أو الاجتماعية أو السياسية. فالشاب يحس بأنه «زميل» وأنه ليس ضروريا أن يكون زعيما رغبة فى الزعامة، وأن يتسلط على زملائه بحق وبغير وجه حق.. أو أن الشاب يحس بأنه يجب أن يفـوز بـالزعامة فينافس زملاءه فى اللعب أو النظام أو فى العمـل المثمـر.. والاحسـاس بالمنافسة هو اسمى الاحساسات الانسانية التى تدين له المدنية الحاضرة بكل ضيائها وجمالها وآدابها..

وحين يجد الشـاب متعة فى عمـل أو فى لعبة من الألعـاب فإن قـوته كلها تتجه إليها، ويركـز نشـاطه فيها.. وتتحـول غـرائزه إليهـا.. فهـو يخـاف ألا يفـوز، ويغضب إذا اعتدى على حقه أحـد، وهـو يفـرح إذا فـاز، ويحـزن إذا أخفق..

ويتعلم شيئا آخر .. هو أن اللعب أو أن الرياضة هى أن يحرص علـى الأمل دائما.. إذا فشل-فلا يحزن، فالذى فاز عليه زميل له، وليس بعيدا أن يفوز هو كذلك.. وأنه عضو فى جماعة، وأنه يساهم فى نجاحها وفى فشـلها وأنه مسئول عنها.

هذه الروح الرياضية هى التى تخلق شبابا صحيحا سليما مسئولا قويا، يعرف الشجاعة والتضحية، ويعرف روح الجماعة لا روح الأنانية!

... كثيرا من الشجاعة ومن الصراحة ومن الحدائق ومن النوادى.. ففى مصر الآن بوليس آداب، ولكن لا توجد آداب.. وغدا تــوجد عنــدنا آداب ولكن من غير بوليس!

الأرض الضيقة

رأيتها أمس فى شارع سليمان باشا.. انها راقصة مصرية معروفة.. ولاحظت أنها تكاد تتساقط وهى تسير على الرصيف، كأنها تمشى فوق حبل مشدود.. ولاحظت أننى أمشى أحسن منها وأثبت منها.. وأن الأرض لا تهتز تحت قدمى.. وتذكرت أيام كنت أسعى إلى الكباريه الذى كانت ترقص فيه منذ ثمانى سنوات.. كنت أسعى سعيا كما يسعى الحجاج بين الأماكن المقدسة.. وكنت حديث التخرج فى الجامعة.. تلميذ ريفى جاء من المنصورة لم ير الدنيا المحمومة التى تتحرك فى الليل..

وكنت أول من يدخل الكباريه.. وكنت لا أزاحم أحدا فى الخروج.

وكنت أجلس فى الصف الأول وانتظرها حتى تخرج على المسرح.. فالموسيقى الصارخة تزفها لنا.. والأضواء الحمراء والخضراء والصفراء تنصب على جسدها الأملس.. وهى تخوض فى ظلمات الليل وظلمات النفوس.. أو نفسى أنا وحدى.. وقد التفت حولها الأفاعى.. حول جيدها وخصرها وساقيها وذراعيها.. وهناك أفاع فوق الجلد.. وأفاع تحت الجلد.. وفى أحشائها.. وأفاع تحولت إلى ذراعين وساقين، وشفتين ونهدين.. وتحولت أنيابها إلى أصابع، وتحول همسها المخيف إلى آهات خرساء..

وكنت أجلس أمامها وهى ترقص وأحس أننى أتلاشى أو أننى أتآكل أو أننى أذوب فى إناء سحرى ضخم لا أراه، ثم أتحول إلى طفل صغير أحيانا، وإلى وحش كاسر أحيانا أخرى.. وكثيرا ما أحسست أننى كالرغيف الذى يوضع فى الفرن عجينا لينا، فإذا هو ينتفخ ويرق ويصعد من الدخان ويميل يمينا وشمالا.. وأنها كانت تقلبنى بعصا طويلة من نظراتها وأحس أننى أصبحت ناضجا وأننى أتمزق لقما لقما.. وأن عفريتا يأكلنى كل ليلة وكل رقصة.!

هكذا كنت أراها.. أما أمس فقد رأيتها تتمايل يمينا وشمالا ثم تتساند على كتف صديق لها.. وأدركت أنها لم تتعلم أن تسير على الأرض، كما يفعل سائر الناس، وإنما هى تعلمت أن تتلوى وتتراجع وتنطوى وتنفرد فوق قطعة من الأرض.. تعلمت أن تقف على رجل وأن تتصنع السقوط والموت واليقظة والنوم.. أن تصور العناق والقبل والضعف والوهن وارتعاشة اللذة، وانتفاضة الفراق.. لقد تعلمت أن تقوم بحركات غير عادية فى بقعة ضيقة من الأرض.. ولكنها لم تتعلم أن تمشى فى الشارع وأن تفلت من السيارات وأن تقف عند علامات المرور.

إنها عاشت فى عالم بلا شمس وبلا ضياء وبلا سيارات.. عاشت فى الظلام وبين المناضد.. وأقامت مجدها كله على قطعة ضيقة من الأرض.. فلما طلع النور، واختفى الجمهور، وتوارت الموسيقى، واتسعت الأرض عليها.. تعثرت وتساندت على أكتاف الآخرين!

وكلنا مثلها.. فأنت لك قطعة من الأرض تعيش فيها.. هذه القطعة هى مكان العمل أو المقهى أو البيت.. وتحس أنك السيد المطاع أو أنك المالك الحقيقى.. فإذا خرجت من هذه البقعة الصغيرة.. تحيرت وأحسست بالغربة.

وأنا أحكى لك حكاية صديق لى من العلماء.. إنه عالم كبير ناجح غنى.. أضاع الكثير من ماله ووقته وشبابه وراحته فى القراءة والتجارب..

إنه متخصص فى تربية النحل.. إنه يعرف جميع أنواع وألوان النحل فى أى مكان فى العالم..

ويعرف الذكور وطباعها.. متى تتمنع ومتى ترضى ويعرف طباع النحلة ويقول أنها كطباع المرأة تماما.. وأنهن جميعا لا يثبتن على حال.. وأن الأنثى من النحل تغير رأيها لسبب ولغير سبب.

هذا الرجل قد هربت منه زوجته منذ عامين.. فقد كانت تحب رجلا آخر.. ولم تستطع أن تتزوج هذا الرجل لأنه كان فقيرا، وكانت أسرتها قد عارضت فى الزواج من موظف بالسكة الحديد.. وتقدم لها هذا العالم الطيب الغنى ووافقت الأسرة. واعتبر العالم الغنى الطيب هذا الزواج انتصارا له. انتصارا للعلم والأخلاق والمال.. ولكن عرف الزوج الطيب أن زوجته تخونه مع رجل آخر.. إنه لم ير ذلك بنفسه وإنما سمعه من أخيه ومن أخته ومن أناس لا يعرفهم.. وعرف أن سفرها إلى الاسكندرية لم يكن لتغيير الهواء وإنما لتغيير الهوى.. وكان للراحة فعلا!

هذا الزوج قد درس طباع النحل وطباع الاناث والذكور وكان يوفق بين رؤوس النحل فى الحلال.. ولكنه لم يفلح فى أن يوفق بينه وبين زوجته.. إنه عالم وفاضل وممتاز فى بقعة ضيقة من الأرض.. فى مزرعة النحل.. إنه يحس كأنه بين أهله وبين عشيرته وبين قوم يعرف لغتهم، ويضحك إذا تزاحموا على وجهه وإذا غضبت واحدة ولسعته فى أصبعه.. ويقول انها تحقنه بالعسل..

لقد كان يروى لنا أن ملكة النحل.. تخرج كل سنة فى رحلة إلى السماء.. ويجرى وراءها كل الذكور.. ولا تزال تطير وتعلو حتى يتساقط الذكور تعبا وارهاقا.. الواحد بعد الآخر.. فلا يبقى إلا ذكر واحد هو الذى تقبله الملكة زوجا لها.. ليلة واحدة.. وكان يقول لنا أن هذه الرحلة اسمها

رحلة الزفاف.. ويظهر أن زوجته قد طبقت عليه نفس المعلومات التى سمعتها واختارت ذكرا من الاسكندرية.. ويظهر أن هذا الزوج الطيب قد سقط وهو يجرى وراءها بسيارته الفخمة. أما هى فقد هربت مرهقة متعبة.. وألقت بنفسها على شريط السكة الحديد فى الاسكندرية!

هذا الصديق عالم كبير، وإنسان طيب.. وناجح ولكن فى «قطعة ضيقة من الأرض» فإذا انتقل إلى غيرها.. فهو مولود جديد لا يعرف القراءة ولا الكتابة.. ولا يعرف أن هناك أنواعا أخرى من النحل.. من الذكور والاناث.. لم ترد أسماؤهم فى الكتب التى قرأها..

ولا أزال أذكر قصة زميلين كانت حياتهما شعرا، وكلامهما موسيقى.. كتبت حياتهما بالنور.. النور الذى رآه كل إنسان فى كلية الحقوق بالقاهرة. وقد رافقت حبهما منذ اللحظة الأولى، لقد رأيته يولد بين أجفان انطوت على الخجل.. ورأيته يكبر فيصبح نظرة عابرة، ثم نظرة طويلة.. وسلاما وكلاما وغيابا طويلا عن الكلية.. وسمعت هذا الحب همسات وشائعات.. ورأيت قصة حبهما وكيف تحول إلى نار تكوى الزملاء الحاقدين والحاسدين.. ورأيت الزهو والنصر والثقة بالنفس كلها تجمعت فى كلمة واحدة من الذهب: خاتم «الخطوبة» وكان هذا الخاتم قلقا.. لم يستقر فى مكانه وإنما انتقل فورا من اليد اليمنى إلى اليد اليسرى.. وكنا نقول فى ذلك الوقت إن الخاتم قد امتصته أصبع الفتاة وانتقل إلى الدم.. وأخذ الدم يحمله إلى كل مكان من جسمها كأنه يقوم بحملة انتخابية وكأنه يسأل أعضاء الجسم جميعا: هل لأحد اعتراض.. ولما مر الخاتم على القلب أمسكه القلب ووقع بالحروف الأولى اسمه واسم الزوجين.. فلما بلغ الخاتم اليد اليمنى كان مرهقا مكدودا.. فارتمى جثة هامدة..

وأصبح الزوج محاميا ناجحا لامعا. كان خطيبا فصيحا.. كانت الجريمة تتحول بين أصابعه إلى جنحة.. وكان القاتل المتعمد يفوز بالبراءة.. والدم

يتحول إلى دماء.. والمخدرات فى أيدى المهربين تصبح قطعا من الحلوى هذا المحامى الناجح الفصيح، لم تستغرق جلسته مع زوجته سوى ساعتين فطلقها.

لماذا؟ لا تصدق كلام الناس.. واقترب منهما تعرف السبب، ويبطل العجب.

لقد كانا طالبين فى الجامعة.. وقد حشد هذا الطالب كل جهوده ونشاطه لمقاومة زملائه.. وكان يسهر ليلا ونهارا يفكر فيما عساه أن يقول لها وحدها، وأمام الطلبة.. وما يقوله للطلبة والطالبات.. إنه حريص على أن يقوم بدور البطل فى هذه الرواية التى يمثلها أمام الطلبة كل يوم.. أنه حريص على البطولة فى هذه القطعة الضيقة من الأرض.. أى الكلية.. وانتصر وفاز بالفتاة وانتزعها من أفواه الطلبة والأساتذة أيضا.. وانتقلت الفتاة من الكلية إلى البيت.. وانتقل الفتى من الكلية إلى المحكمة وإلى مكتبه.. وجلس معها فى البيت ورآها.. رآها جميلة ورآها قبيحة، ورآها عارية ورآها تأكل وتلعب بأصابعها فى أنفها وفى أسنانها.. ورآها تعطس فى وجهه.. وتسعل.. ورآها تشكو الارهاق والتعب..

وأخذ يشم روائح لم يعرفها من قبل.. روائح من فمها وأنفها وصدرها.. وفى الفراش.. وكلها أشياء عادية.. ولكنه لم يكن يعرف ذلك من قبل ولم يكن يتصور هذا أبدا.. ولم يقرأ عنها فى كتب القانون.. إنه الآن لا يقوم بدور.. إنه لا يمثل.. إنها الحياة الحقيقية.. فلا طلبة ولا طالبات ولا جمهور ولا منافسة ولا مقاومة.. لقد تغيرت قطعة الأرض التى كان يمرح فيها ويركب حصانه الأبيض ويعصب وجهها ووجهه.. ويصرخ كطرزان..

لقد اكتشف أنه لا يحبها.. وأن الذى دفعه إلى الزواج منها هو مجرد الاحساس بالنصر، ولذة النصر على زملائه هى التى دفعته إلى الزواج

منها ثم تزوجها.. إنه اعتبرها قضية من القضايا وأنه يجب أن يكسبها.. وقد كسب القضية.. وخسر الزوجية!

أما هى فتقول أنه لا يعرف ماذا يقول.. لا يعرف كيف يجاملنى.. كيف يعاملنى كإنسان.. مثله تماما.. يتعب ويمل ويريد الراحة.. إنه لا يجد شيئا يقوله.. إنه يتلعثم ويتفتف.. إنه يعود إلى البيت كأنه أحد الدوسيهات القديمة التى ربطت القضايا والجرائم وأضيع أنا فى الزحام.. ما كان يجب له أن يتزوج.. إنه خلق للمحكمة التى عقدت جلستها أربع سنوات على أرض كلية الحقوق ورفعت جلستها بالطلاق!

إنها قطعة أرض ضيقة.. تكون فيها بطلا.. فإذا خرجت منها.. فأنت كالسمك الذى ألقى على الشاطئ أو الطير الذى ألقى إلى البحر.

إن أجدادنا فى الريف يمسكون الأوزة أو البطة فيدقون مسمارا فى إحدى رجليها.. حتى لا تتحرك فتمتلئ بالدهن.. وكل الذين ضاقت أرضهم امتلأوا شحما ولحما.. واستحقوا الذبح وقدموا على مائدة الحياة طعاما شهيا لضيف لا يشبع اسمه: الفشل!

الحذاء صغير..
ولكن الحكاية ليست صغيرة!

لوكان لى حذاء جديد، ولو مرة واحدة، ما جرى ما كان.. فقد كنت أرتدى أحذية إخوتى الأكبر منى.. هم أكبر منى، والأحذية أكبر من قدمى.. وكنت أشعر براحة فى قدمى، وحرية فى الحركة ـ أو هكذا كنت أقول لنفسى..

ولابد أننى كنت أقول ذلك فى حالة دفاع عن النفس.. عندما يتعجب زملائى فى المدرسة من هذا المنظر الغريب.. ولم يكن دفاعى عن نفسى ضد شخص واحد.. وإنما ضد كثيرين.. فقد كان بعض زملائى يجيئون ليتفرجوا على حذائى.. كم هو طويل.. كم هو كبير.. ومن الغريب أننى لم أكن ألاحظ ذلك.. ولا أشعر بشىء من الغرابة.. ولكن هذا الشعور بالغرابة قد نقلوه إلى.. فرحت أشعر فعلا بأننى مضحك.. والذى كان يؤلمنى أننى لا أستطيع أن أفعل شيئا.. لا أعرف كيف أدارى حذائى.. ولا أين أضع قدمى..

وأصبحت أتصور أن كل تلميذ يقع منه قلم على الأرض أو مسطرة إنما هى حيلة ليلقى نظرة على حذائى..

وكنت أول من يدخل الفصل.. وآخر من يخرج منه.. حتى لا يرى زملائى حذائى.. أو حتى لا يرونى من خلال حذائى.. وعرفت أن «نظرة العين» قاسية.. قاتلة..

وعرفت أن النظرة موجعة مؤلمة.. من الممكن أن تقـول أكثـر وأقسى مما يقول اللسان.. بل إن الذين رأوا وقالوا، لم يعد عندهم ما يقـولونه.. أما هؤلاء الذين يرون ولا يقولون فهم أكثر كلاما وأشد إيلاما..

ولا حل عندى.. ولا أمل فى سكوتهم..

وتمنيت، وما أكثر ما تمنيت، لو كان لى جلباب بـدلا مـن البنـطلون القصير لأخفى هذه الجريمة.. حتى البنطلون أحسست أنه واسع أيضـا. ولم أكن أشعر بذلك.. فالبنطلون أيضا هو نصف بنطلون إخـوتى الأكبـر منى.. وكنت سعيدا حتى التفت زملائى إلى حذائى.. فشعرت أننى أرتدى ملابس غيرى.. وأعيش فى أحذية وقمصان وجـوارب إخـوتى وأقـلامهم وكراريسهم.. إننى «صندوق زبالة» كل إخوتى.

حقيقة مؤلمة.. ولكن ما الذى أستطيع أن أفعله؟ لا شىء!

ما الذى يستطيع أن يفعله أى أحد لى؟ لا شىء! وإذا قلت ذلك لأمـى فماذا عساها أن تفعل؟ لا شىء.

إن الناس فى غاية القسوة! لقد كنت أسكن فى ملابس غيـرى.. سـعيد فطردونى منها.. أو عيرونى بها.. أو جعلونى أنظر إلى حذاء كل تلميـذ.. وأقارن بين حذاء ابن المدرس وابن الناظر وابـن العمـدة.. وكنـت أرى ابن العمدة يجىء إلى المدرسة راكبا حصانا لا لشـىء، إلا لـكى يبـدو حذاؤه جديدا صغيرا لامعا.. كأنه يضعه فى عين أى إنسان.. أو عينى أنا.

لو كان لى حذاء جديد، ولو مرة واحدة، ولكن لـم يحـدث ذلك مـرة واحدة!

وعرفت أن المشى فى الشارع فضيحة ـ وأن الذهاب إلى المدرسة يجب أن يكون فى ساعة مبكرة، حتى لا يرانى الناس.. هل من المعقول أن يكون نشاطى وحبى للدراسة وحرصى على أن أكون تلميـذا متفـوقا فى جميـع

مراحل التعليم هو إننى أصحو قبل أن يصحوالناس، وأن أذهب إلى أية المدرسة سيرا على الأقدام هل كان ذلك سببه إننى لم أحصل على حذاء جديد فى حياتى؟! هل معقول أن يكون ذلك هو بسبب الخجل أو الشعور بأننى دون الناس.. لا أعرف الحقيقة.

وكنت أقف وراء الباب إذا جاء إنسان يدق باب البيت حتى لا يرانى حافيا فأنا لا أضع حذائى فى البيت.. إنه عار فى الشارع.. فما بالك بالبيت. كنت أنظر برأسى وأدارى بقية جسمى.. لا حذاء ولا بنطلون ولا قميص.. إننى أعرف أناسا يفتحون الباب كاملا ويقفون أمام الباب، ويقف إخوتهم الصغار.. وأحيانا أمهاتهم.. كل هؤلاء يقفون معا.. لا خوف.. لا خجل.. لا حرج إنهم لا يخافون من عيون الناس.!

أو لابد أنها الغريزة.. لقد أصبحت شابا مشهورا بين تلاميذ المدرسة الثانوية عندما نظرت إلى فتاة. ونظرت لى فى عينى.. دخت.. ذبت.. تلاشيت ـ تساقطت من حذائى.. ولم أكن أعرف أن هذه هى عادة المرأة أن تنظر فى عينى من ينظر لها.. وتصور أنها رأت وأرادت وحريصة على أن تعرف هذا التلميذ الذى هو أنا.. صغير لا أعرف ما معنى نظرة فتاة فى مثل سنى.. مارة لعلها لم تقصد أى شىء ولا يمكن أن أكون قد كبرت فى عينيها لأن والدى اشترى لى حذاء قديما.. ملتصق تماما بقدمى.. كيف عرفت ذلك. كيف تغيرت نظرتى..

إننى لم أترك شارعا فى المنصورة لم أدسه كأننى أريد أن أشهر حذائى المختلف عن كل الأحذية.. إن الناس لا يعرفون كم ساعة بكيت.. لا يعرفون كم ساعة بكت أمى.. كم يوما غاب أبى عنا ولما عاد كانت عينى على الأشياء التى حملها على صدره.. وقبل أن أنظر إلى عينيه الخضراوين قال يرحمه الله : أتيت لك به. فلا تحزن يا حبيبى!

وكنت حبيبه وكان حبيبى.. أصدق حبيبين. ومضت دقائق وأنا لا أكاد أتبين لون الحذاء.. هل هو أسود قاتم.. هل هو بنى غامق.. ولكنه حريص

على قدمي.. يضغط عليهما.. يعانقهما بشدة.. ولم أنم تلك الليلة إلا بعد أن نظفت الحذاء من الداخل والخارج وفى الليل عندما صحوت سألتنى أمى : إلى أين؟ قلت : إلى دورة المياه.

ولم يكن هذا صحيحا فأنا أردت أن أرى الحذاء.. ولو كان هذا الحذاء جديدا لضايقنى..

إننى أفضل أن يبدو قديما. أى أنه كان عندى منذ وقت طويل ولسبب من الأسباب ارتديت أحذية اخوتى.. أى أننى غيرت الحذاء باختيارى ورويت هذا كله، من غير مناسبة، لكل الزملاء.. هم يرون أننى أقول كلاما لا مناسبة له، ولكن المناسبة موجودة فى أعماقى تهزنى.. وتدفعنى إلى أن أقول.. إلى أن أصدر بيانا أكذب فيه كل ما دار فى رؤوس زملائى..

أما هذه الفتاة فقد استقرت فى خيالى طويلا..

وفجأة انقطع الحذاء.. لأنه ضيق.. وكان من الضرورى إصلاحه بسرعة. وتم إصلاحه. ولكن خوفى المستمر أن ينفجر جعلنى أخاف من المشى بسرعة.. وأخاف من المشى كثيرا..وأخاف من اللعب فى الشارع أو اللعب فى حوش المدرسة..

وأضيف إلى تكوينى النفسى شىء جديد : الخجل.. أو الخوف أو اتحد الاثنان معا ضدى..

أما الخوف فهو من كل شىء.. من الأيام.. من العودة إلى البيت من الخروج من البيت.. من الغد.. من كل إنسان يدق بابنا.. من كل إنسان يسأل عنا.. من كل ساعى بريد ألا يكون الخطاب اعتذارا من والدى بأنه لا يستطيع أن يبعث لنا مالا هذا الشهر. الخوف من الجوع.. من المرض من كل عين خبيثة ـ عادة خبيثة ـ تتركز على قدمى.. أو على ملابسى كلها.

وتعلمت فى ذلك الوقت، ربما كنت فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، إذا مشيت أن أحنى رأسى.. أن أخفى رأسى.. ألا أنظر إلى أحد فى وجهه ولماذا أفعل ذلك؟ إن أمى كانت تضرب بى المثل فتقول: ابنى مؤدب ولا ينظر إلى أحد فى وجهه. ولا يخرج من البيت!

وكانت أمى معجبة بى. فقد كانت مثلها العليا أن يكون الابن فى خجل البنت وحيائها. وهذا هو الأدب ـ ولم أكن أستطيع أن أفعل غير ذلك لو أردت.

وكانت هذه أخلاقيات الناس الطيبين.. وكنا أساسا طيبين.. عائلة كبيرة. كانت غنية. هكذا يقول كل الناس.. ويقولون إن الوردة التى جفت، لم تجف رائحتها. وكنا الرائحة الباقية فى الوردة.. ذهبت الأملاك وبقيت الأخلاق. وأنا صورة من الأخلاق المثالية التى تراها أمى.

وكنا نقوم بدور الضحايا فى كل مكان . فقد وقع علينا عدوان الأيام.. ولا ذنب لنا. أو هكذا أقنعنا أنفسنا. وإن كان أحد من الناس لا يسألنا عن شىء من ذلك. ولكنا كنا نتطوع بأن نقول: إنه الزمن الغادر!

ووجدت نفسى فى هذه السن الصغيرة أكتب «مذكرات».. وليس واضحا الآن، كيف اهتديت إلى الكتابة.. لم أر أحدا يفعل ذلك.. ولكن كلما وجدت نفسى وحيدا، وهذا يحدث كثيرا، أتسلم قلما وورقا وكتبت.. وأنا أحتفظ ببعض هذه المذكرات..

وكان نوعا من الحديث إلى نفسى. وأشهد أننى كنت قاسيا على نفسى.

مثلا. لماذا أقول لنفسى: اجلس فى مكانك. اقرأ. وسوف يجىء وقت تلعب فيه كما يحلو لك!

منتهى الظلم لنفسى.. ففى ذلك الوقت لم أكن ألعب ولا عرفت اللعب ولا أستطيع. كيف ألعب فى المدرسة. من أين اشترى ملابس اللعب. إننى

أحوج إلى ملابس المدرسة. إلى ملابس اللعب. أما اللعب فهو ترف لا أقدر عليه واليوم عرفته إننى ظلمت نفسى كأن الذى أسمعه من أمى ليس عذابا كافيا.

إنها كانت تقول لى: يا بنى إنك لست كأحد من الناس!

ولكن لماذا؟

لست كأحد من الناس فنحن دون الناس. ولكن لماذا؟ هل لأننا نسكن فى الطابق الأرضى، وأناس آخرون يعيشون فى الأدوار العليا؟ هل لأننى تلميذ أسكن فى الطابق الأرضى وصاحب البيت مدرس ويسكن فى الطابق العلوى، ولا ندفع الايجار بانتظام! هل لأن أبى بعيد عنا معظم الوقت ولا نستطيع أن نعيش معه؟ هل لأننا نأوى إلى البيت مع غروب الشمس لكى نصحو مبكرا مع شروق الشمس نقرأ على ضوئها.. فنحن ما نزال من أهل الكهف كأننا لم نسمع عن نور الغاز ونور الكهرباء هل لأننا نلتف حولها كأننا ملابسها حتى لا يتسلل الهواء إلى صدرها فيمزقها فتنزف دما.. وكم من الليالى أمضيناها حولها هى تنزف الدم ونحن ننزف الدموع ولا حيلة لنا إلا البكاء عليها وعلينا ـ يرحمها الله. وكل واحد منا يمسك مصحفا يقرأ فيه نلتمس لها الشفاء من الله.. ولم أرها فى صحة جيدة أبدا.. وإنما هى التى كانت تقول إنها كانت تستطيع أن تمشى ساعات وأن تأكل دجاجات.. وأن ترى بعينها نجوم السماء فى النهار.. هى التى كانت تقول.. ولكنها إذا سارت فى الشارع راحت تتساند على الجدران.. وكنت أتمنى وأنا أنظر إليها ألا ينتهى الجدران.. ومن الغريب أنها كانت تنتهى عند ملتقى الشوارع ـ هكذا أقول فى مذكراتى.

وأعود إلى مذكراتى الصغيرة فأجدنى أقول: إن هذه الفتاة جارتك غنية.. انظر إلى ملابسها.. إنها تلعب بك.. أنت واهم.. اغمض عينيك وادفن نفسك فى البيت!

مع أننى لم أفعل سوى النظر إليهـا.. وأنتـظرها. والآن أسـتطيع أن أصفها إلى حد ما. فقد ظلت صـورتها فى رأسى سـنوات طـويلة.. إنهـا سمراء.. وتلف حول عنقها منديلا أو حبلا أبيض.. وإذا مشت كانت مثـل البطة تمشى مفتوحة القدمين.. كلاعبات الباليه.. قدماها منفـرجتان إلـى الجانبين وعيناها سوداوان.. وشعرها أسود.. وحاجباها غليـظان.. وهـى تنظر فى وجهى مباشرة.. وتسكن إلى جوارى. وقـد اكتشـفت ذلك بعـد سنوات.. تابعتها مرة من بعيد.. ورأيتها مرات من بعيـد.. مشـيت علـى كوبرى المنصورة.. وراءها من بعيد لا أرفع عينى عنها.. ولففت حول عنقى كوفية، تشبها بالأستاذ العقاد وكنت مفتونا به فى ذلك الوقت. وهذا يحـدث عادة عند الغروب.. والليل ستار.. وأنا فى حاجة إلى الستر.. كلنا أيضـا. والليل يسوى بين أصحاب البدل القديمة والجديدة.. وبين الذين يـرتدون أحذيتهم وأحذية إخوتهم.. والليل نعمة من الله.

وظللت اهتم بهذه الفتاة. وكنت أتمنـى أن ألمسـها قبـل أن يـذوب حذائى.. وقبل أن تظهر أحذية أخرى فى بيتنا. وتمنيت ذلك..

وجاءت خالتى من الريف.. وكانت سيدة جميلة جدا. أجمل من رأيت فى حياتى. وأرق وألطف. شقراء رشيقة. وصوتها جميل. وحنانها لا حدود له. وكانت تحبنى وكنت أسعد بذلك. أشعر بأن أحدا يحبنى. إنها أول امرأة فى الدنيا أحسست أنها تحبنى. ولم أكن أعرف معنى الحب.. ولا عرفت معنى أن أحبها، ولا معنى أن تحبنى. ولكن لا أكاد أراها حتى أجدنى مجنـونا إليها، ومجذوبا بها.. ولا أريد أن تبتعد عن عينى وعن أذنى وعن يـدى.. أن أكون جزءا منها.. وانـدهشت كيف لا تـكون أمـى. أو كيف لا أكون ابنها.. ولم أفهم كيف أن أما مثل خالتى تختلف عن أمى أنا..

وقالت لى مرة: أحبك كأنك ابنى!

وكنت أنتظر هذا المعنى. أو كنت أحسه.. ولم يكن لهـا ابـن فى ذلك الوقت. وكانت أمى..

وبعد أن ماتت خالتى، تمنيت أن أكون ابنا لعشرات من الأمهات.. ولكن ليس بين هذه الأمهات واحدة تمنيت أن أكون ابنها. أعرف ذلك .. ولـكن خالتى هذه كانت أمى الأولى.

إننى أجلس إلى جوارها فأشعر أننى قد ارتديت أحسن ملابسى وأجملها وكنت أتمنى لو رآنى الناس معها.. كيف أن أمى جميلة جدا وتحبنى جدا وأحبها جدا.. إننى لم أر أمهات زملائى فى المدرسة، وحتى أم هذه الفتاة جارتنا ليست جميلة.. ليست لها عينا خالتى، ووجهها المشرق، ولا شـعرها الطويل ولا صوتها الجميل وهى تغنى .. لا أحد مثلها فى الدنيا.. ولا حتى أمى!

ففى ذلك الوقت ـ واليوم ـ كنت أشعر أننى طفل محروم مـن نعيـم الأمومة والطفولة..

وأننى طردت من جنة الأطفال، بلا ذنب جنيته، وألقيت فى غابة الرجال.. وعرفت فيما بعد، مع الأسف، كيف يمكن أن يكون الانسـان مـذنبا بـلا جريمة.. وأحسست بالعار والفضيحة، ولم أقترف شيئا..

ولماذا أنا بالذات فى حالة اعتذار دائم لكل الناس. لماذا؟

فى حالة قرف.. فى حالة خجل من كل الناس.. فى حالة بحث عن مأوى.. عن مخبأ من غارات وهمية وحقيقية يشنها الناس.. لماذا أنا؟

إن الحياة هى الخجل من الحياة.. أو أن الحيـاة هـى الحيـاء..

والموت هو الخوف أيضا: فإذا دق قلبى لفتاة، يجب أن أكتم قلبـى.. لأن هذا الذى يجرى فى داخلى خطر على حياتى.. خطر على دراسـتى.. فأنا لست كالناس.. أنا أذاكر فقط.. لا ألعب .. لا أسهر.. لا أنـظر إلـى

فتاة. فإذا نظرت فشهر بى مثل فلان.. وأخرجونى من المدرسة مثل فلان.. وإذا خرجت فما الذى يمكن أن أفعله، لا عندى أرض، ولن تكون.. ولا أحد يستطيع أن ينفق على .. إذن المدرسة هى حياتى. والكتاب وجودى.. والنظر إلى الناس ضياعى.. ونظر الناس إلى هو اعدامى..

فأنا ميت إذا نظرت إلى أحد، وقتيل إذا نظر إلى أحد!

وماتت خالتى.. وأحسست أننى أيضا مت.. وكنت أريد أن أموت معها.. هكذا قالوا لى فيما بعد.. أننى تمسكت بنعشها ورحت أناديها.. والناس يمنعوننى بالقوة ويقولون: حرام يا ابنى!

وكثيرا ما صحوت من النوم مفزوعا على منظر خالتى وهى تشدنى إلى عالمها فأنهض من الفراش.. وكل من حولى يصرخ ويبكى وأنا أقول: خدينى معك.. ولا حياة لى.. خدينى إليك!

وبعد خالتى أدركت أن القلب قاتل.. ولم يتعلق قلبى بأحد

ولذلك كنت قريبا من الحب، ولم أكن فى الحب.. لم يكن ذلك قرارا اتخذته فى ذلك، فأنا لا أستطيع ولا أحد، ولكن عندما استعرض ما حدث لى بعد ذلك .. كم جارة.. كم تلميذة.. كم قريبة .. كنت أرى وأمط شفتى.. ولا أهتز.. ليس بعد الحبيبة الغالية التى ماتت أحد.. كلهن سواء.. كلهن وجع قلب..

قريب من الحب.. إلى جواره.. لا أدخله ولا يدخلنى. فهذه السيدة هى الوحيدة التى رأيت فيها جمال الوجه والروح.. راحت وبقى وجهها فى وجهى، وعيناها فى عينى، واختفاؤها حاضرا فى خيالى وصوتها فى أذنى.. وحبها أخذ حبى.. وأصبحت نعشها الأبدى!

وأعود إلى مذكراتى الصغيرة فأجدنى أتحدث كثيرا عن هذه الفتاة.. وأجدنى أردد كلمة · الحب.. مع أننى لا أعرف معنى الحب.. وكل ما أعرفه

هو أن قلبى يدق وراء الباب ـ أو أننى أقف وراء النافذة أنظر إلى جارة تروح وتجىء عن عمد أو مجرد صدفة.. وأظل أنظر ولا يرانى أحد.. مع أن أحدا فى ذلك الوقت لا يهتم بى. ولا ألوم أحدا على ذلك الاهمال. هل كنت أخاف من أمى؟ هل من أبى؟ لم أخف من أبى قط. فهو لم يكن هناك معظم الوقت.. أنه بعيد فى أرض بعيدة يبحث عن قطرة ماء.. يبعث بنصفها لنا، ويستبقى النصف له.. فلا هو ارتوى، ولا نحن شبعنا..

وفى مذكراتى وجدتنى أتحدث عن المرة الأولى التى استمعت فيها إلى كلمة الحب، لأول مرة. كان ذلك فى الريف. وكنت طفلا فى كتاب القرية «كفر الباز» وأمى من عائلة الباز. وصاحب الكتاب ابن خالة أمى. وكانت أمى وأمها ما تزالان على قيد الحياة. وكانت جدتى شقراء زرقاء العينين شقراء الشعر من هؤلاء المغاربة الذين ولدوا من أصول قريشية.. وكثيرا مثلها فى محافظتى الدقهلية ودمياط.. وكانت كثيرة التردد على هذا الكتاب. وكانت توصى بى وبأحفادها وهم كثيرون جدا.. وفجأة، وفى أحد الأيام، سمعت الأطفال يقولون إن صاحب الكتاب «يحب» فلانة وكنت أقولها مع الأطفال.. أرددها وأهرب.. وكان الطوب يلاحقنى.. فكلمة الحب مخيفة.. والذى يقولها يستحق العقاب.

وفى كل مرة نجلس على الترعة أو على النيل وتمر فتاة غسلت وجهها ورفعت طرف ثوبها فيتهامس الأطفال الاكبر سنا ويقولون: إنها تحب فلانا.. أو أن فلانا يحبها.

وكنت أسمع عن أناس يذهبون إلى الحقل ليلا.. وإلى الساقية .. وتتردد كلمة الحب..

ومرة ونحن نتعشى قلت لجدتى، وكانت سيدة فى غاية القوة والقسوة أن فلانا وأشرت إليه يحب فلانة.

وضربتنى وأوجعتنى. وكانت أول مرة فى حياتى أعانى مثل هذا العقاب.. وفى أول مرة أيضا أقرر فيها الانتقام من جدتى.. وأذكر أنه فى

يوم مولد النبى، ذهبت إلى كل الحلل التى وضعت فيها اللحوم والأرز والحساء وملأتها بالتراب. ولم أهرب وظللت واقفا إلى جوارها حتى تجىء.. وكان عقابى مضاعفا!

وكان الحب يعرفه كل الناس. ويخجلون منه. أو يجدون الكلام عنه فرصة لتجريح الناس. ولكن أحدا لا يستطيع أن يسكت عنه أو يخفيه.. إنه «شىء» يحمر له الوجه وتتعثر به القدم، وهو موجود. ومخيف. وعيب. حرام. ولكن لا أعرف فى ذلك الوقت إن كنت قد سمعت أن الحب حرام.

وكنت أسمع عن أناس يذهبون إلى الحقل ليلا.. أو يستحمون فى النيل عند الفجر. أو يذهبون إلى السوق. أو يتحدثون فوق الأسطح. لا أعرف إن كانت هذه الأحداث لها علاقة بالحب. كنت أسمع ولا أفهم جيدا. ولكنى أتذكر جيدا. وأرى الناس يتغامزون ويتلامزون ويتهامسون.

وكانت لى أخت ماتت. أذكرها بوضوح الآن. وأشعر بلهفتى عليها وفرحتى بها. ولا أعرف لماذا كانو يحذروننى منها. لا أعرف هل منها أو من جدتها التى تربيها. إنها أخت غير شقيقة. وقد مات أبوها. إننى أرى وجهها الحلو الآن. ولكن ملامحها ليست شبه ملامحى. أظن كانت سمراء وردية اللون. أو كانت وردية وكان شعرها أسود. وعيناها عسليتين طويلة. تنظر لى من بعيد. وهى الأخرى لا تقوى على أن تقترب منى. لعلهم يخيفونها أيضا من جدتى. لا أعرف. ولم أجد وقتا أسأل أحدا عن ذلك. ولا حتى سألت أمى. وفى إحدى المرات حاولت أن أسأل أمى، كانت تضحك وتقول: أما تزال تذكرها!

وينتهى الكلام عنها. وكنت أريدها أن تطيل فى ذلك. ولكنها لم تكن تفعل.

وكم تمنيت لو كانت لى أخت. ولها أولاد وبنات. ولها بيت. وأن أكون بين هؤلاء.. واحدا منهم. أخاهم الأكبر. أباهم.. أجلس بينهم ويلتفون

حولى وآخذ من ملامحهم شيئا منى.. وأحس، دون كلام، أننا معا أيا كانت هذه الصلة التى تربطنا وأيا كان اسمها.. الأسماء لا تهم.. دائما الشعور هو الذى يهم. وهو الذى تمنيته ولم أجده.. ولن أجده..

وكنت أتسلل إلى أختى هذه.. طفلين صغيرين. أخفى لها فى جيوبى سكر النبات. وأضعه فى يديها. وكنت أخاف أن يقول الناس: أنى أحبها.

وفى يوم من الأيام وبشىء من العناد والتحدى وأثناء العشاء ومن غير أية مناسبة وقفت وقلت: إننى أحب أختى!

وتوقعت أن تمتد الأيدى. ولكن أحدا لم يضربنى وضحك الجميع وقالوا: طبعا أليست أختك؟!

ولا أعرف فى ذلك الوقت ما هو الفرق بين الأخت الشقيقة والأخت غير الشقيقة. إنها أختى. وهذا هو الأصح. ولكن عندما كبرت عرفت الفرق. وهذا هو الغلط!

وأحببتها. وماتت أختى، ولكن حسرتى عليها لم تمت..

لقد كان الحب والموت متلازمين..

وخفت على الذين أحبهم أن أجاهر بحبهم حتى لا أفقدهم.

أو هذا المعنى هو الذى رسخ فى أعماقى واستقر عنصرا قويا من عناصر اليأس. ولونا من ألوان التشاؤم، ورصيدا هائلا من التعاسة..

وفجأة.. انتقلت من المنصورة إلى القاهرة.. كما تنتقل سمكة من حوض سمك إلى بحر.. أو كما تنقل سمكة من ماء يغلى إلى فرن ملتهب..

أو كأننى انتقلت من رحمة الله إلى رحمة الناس ـ والناس لا يرحمون!

ومع القاهرة وفيها دخلت الجامعة.. أو انحشرت فيها.. وكان دخولى أليما. فقد أصابنى مرض جلدى. واعتدت أن أخفى يدى فى جيوبى. وعند

الكشف الطبى أخرجت يدى وتراجع الطبيب. فتراجعت أنا أكثر وأكثر. وأحسست أننى أتراجع إلى المنصورة إلى الريف إلى بطن أمى . إلى العدم.

وكل ما قاله الطبيب قد ردده الطلبة والطالبات. ولم أشعر بشىء من ذلك فلم أكن «موجودا» عندما وقفت أمام الطبيب.. وإنما كنت شبحا.. أو كنت صمتا أو عارا أو تهمة أو ميكروبا أو مبررا لهز الكتفين ومط الشفتين وخطوط من القرف على وجه الطلاب وسببا وجيها للعن الذين فتحوا الجامعة للفقراء والفلاحين، مهما كانو نابهين ـ وكنت الأول على مصر فى ذلك الوقت!

وكانت الحياة فى الجامعة صعبة.. لم تكن حياة بالمعنى الحقيقى، وإنما هى فرصة لأن يتوارى الانسان من الحياة.. مناسبة للمساواة..

وكنت أسكن فى امبابة..

وكان لا بد أن أذهب إلى الجامعة سيرا على الأقدام. لم تكن هناك وسيلة أخرى غير ذلك. فلا أحد يستطيع أن ينفق على.. والحمد لله أننى ذهبت إلى الجامعة. فكل الظروف تسد الطرق وتسد أبواب السماء أيضا. وتسد النفس.. وكان لا بد أن أمشى على النيل. وأن أمشى وسط الحقول. ومن الاكتشافات العجيبة فى ذلك الوقت أننى فجأة وكأن غطاء قد ارتفع عن الأرض: وجدت الحقول الخضراء والبيوت الملونة والنخيل والفلاحين والطيور والزهور. كل ذلك اكتشفته فجأة ـ مع أننى أمشى وسط هذه الحقول أكثر من أربع سنوات لم أرها. فقد كنت كخيول العربات الكارو أو مثل جاموس الساقية أدور مغمض العينين.. أدور ولست فى حاجة إلى عينين..

واكتشفت أيضا أن الطريق إلى الجامعة كان مخنوقا بأشجار عالية باسقة.. غريبة.. وفى ذلك الوقت كنت أنظر إلى نهاية الطريق. أو انتظر نهاية الطريق ووجهى إلى الأرض كأننى أعد خطواتى.

ولم ألاحظ الفتيات وطالبات المدارس الثانوية والجامعة، الواقفات على محطات الترام أو الاتوبيس.. ولا كنت ألاحظ أن بعض زراير قمصانى تتساقط منى ولم أعرف السبب فى أن زميلاتى كن يتطوعن دائما بإعادة الزراير إلى مكانها من القميص ولم أضحك عندما حاولت زميلة أن تداعبنى وهى تقول: لا تخف لقد أتيت معى بكرة خيط وإبرة!

واعتذرت هى عن هذه النكتة التى لم أضحك لها.. ولم أسأل نفسى لماذا لم أضحك لهذه المداعبة. ولم يتسع وقتى لكى أناقش الكثير من سلوكى وسلوك غيرى كنت مشغولا عن كل شىء بالدراسة . فحياتى تدور كلها حول الكتب والمحاضرات فقط. هنا تبدأ حياتى وهنا تنتهى.. ولم أكن فى ذلك الوقت قادرا على التمييز بين النكتة والمداعبة والسخرية ولم أكن قادرا على النظر فى وجوه الناس والصبر عليهم ولا محاولة الفهم..

فى ذلك الوقت رأيت الطالبات عن قرب. ولم أشغل نفسى بأحد. ولا وجدت سببا وجيها لذلك. ولكنى كنت أقرب الطلبة إلى الطالبات.
ولم أعرف سببا لذلك. ربما كنت مجتهدا. ربما كنت جادا. ربما لأننى لا أريد شيئا من واحدة منهن: لا صداقة ولا زمالة ولا حب.. ولا انشغال بأى معنى..

وفى إحدى المحاضرات طلب منى أستاذ مادة الأخلاق وكان انجليزيا أن أتحدث عن مفهوم «القوة» واخترت المعنى الذى كان ينادى به الفيلسوف الألمانى نيتشه فى كتابه «إرادة القوة» ولم أكن قد فهمت معنى القوة هذه. وإنما كنت مسحورا بأسلوبه الخطابى الشاعرى.

وكنت سعيدا بأن أتحدث عن القوة وأنا ضعيف، وعن السيطرة وأنا ضئيل، وعن الانسان الأعلى وأنا لا أكاد أظهر بين المقاعد.. وبكل هدوء وبرود أستاذية قال الأستاذ الانجليزى: ولكن لم أفهم ما تقول.

وتعالت الصفافير فى أذنى.. ورأيت ما يراه الغـريق بيـن الأمـواج: الشاطئ والسماء والناس وعربات الاسعاف والصرخات والبكاء والـدموع.. ولكنى رأيت إحدى زميلاتى تقول: ولكنه بحث ممتاز!

وكانت عبارتها مثل طوق نجاة ألقى إلى غـريق بعـد أن أكل السـمك ذراعيه!

ولم أشكرها على هذا التقدير. ولا حتى فهمت معنـى هـذا التقـدير. ولا أحد نبهنى إلى ذلك!

وفى زحمة الأحداث ضاع هذا الموقف المـؤلم. وعـوضنى عـن ذلك اجتهادى وتقدير هذا الأستاذ وكل أساتذتى وزملائى وأصـبحت معـروفا كطالب مجتهد جدا.

وأصبحت نموذجا بين زملائى.. حتى عيوبى موضة. فقـد كانـت لـى طريقة فى المشى. لا أعرف من أين أتيت بها. فقد كنت أمسـح قـدمى فى الأرض وأدقها دقا. كأننى أؤكد لنفسى ولغيرى أنه لا يهمنـى مـا تفعلـه الأرض بحذائى إننى أدوسها وأدقها على رأسها. إذا كانت الارض بـلاطا فحذائى حديد..!

ونقل بعض الزملاء منى. وكنا ندق الأرض. وكانـو يقـولون: الخيـول جاءت.. وأحيانا يقولون: الحمير أيضا ـ على حسب الأحوال.

وأنا أكره الضوضاء. ولكن كل ما يتعلق بالحذاء يضايقنى. فأنا أريد أن أشعر به وأن يشعر به غيرى. ولأسباب فى أعماقى وربمـا كانـت طـريقة المشى هذه تعطينى شيئا من الجدية. كأننـى أحـاول أن أقـول لنفسى ولغيرى: أن هناك أمورا عاجلة تقتضى أن أمشى هكذا بسرعـة.. ثـم أن حركتى يجب أن تلفت الآذان.. فأنا شخص لا يمكن تجاهله.. أو كأننـى أحاول أن أنظم أفكارى مع إيقاع حذائى..

وكان ذلك نوعا من الايهام

ولم أتحمل هذه النكتة من إحدى الزميلات: صحيح ما لون هذا الحذاء؟

وعرفت فيما بعد أن عددا من الزميلات كن يتراهن على لون حذائى: هل أسود على أخضر. أو أسود على بنى أو أحمر على أسود..

ولم أغفر لهن هذه المداعبة. ولا أظن أننى أفلحت فى أن أتحدث إلى واحدة منهن ثلاث سنوات.. ورغم أن كل واحدة قد اعتذرت. ولكن الطفل من داخلى الذى عذبه الحذاء سنوات لم يسمع وما سمعه لم يقبله عذرا وجيها!

وأندهش جدا كيف أننى هكذا: قلبى أسود..

ولكنهن لا يعرفن الحقيقة.. فكلانا مظلوم: أنا ظالم لهن، ومظلوم أيضا!

وأعطتنى الدولة خمسة وعشرين جنيها مكافأة على أننى أول التوجيهية.. وتمنيت أن أشترى بها أحذية. فقط أحذية: أسود وأخضر وأحمر.. أحذية ذات ألوان صريحة تماما. لا يختلف أحد عليها. وإنما أحذية لونها نوعها وطولها وعرضها ومن هو صاحبها.. الذى يلبسها أو إنه إنسان آخر.. كأن الأحذية بيوت: لها ملاك ولها سكان!

وعندما قبضت المكافأة تغير تفكيرى فجأة..

وقلت لنفسى: إذن أشترى الكتاب الجديد، وأرتدى الحذاء القديم. يكفى أننى قادر على شراء حذاء.. وفى نفس الوقت زاهد فى شرائه!

واسترحت إلى هذه المعانى..

وأخيرا جاءت بعض المعانى التى تبعث على الراحة إذن هناك استعداد عام للرضا. ومزيد من الرضا عن النفس وعن الغير..

وكانت هذه أفكارى أنا.. فقد كنت فى تلك الوقت مغلقا على نفسى مثل نوح فى خضم من الصمت. أفكارى هى طعامى اليومى لا أنقلها إلى أحد من الناس. وأنا أكتفى بأنها عندى. ولا أتداولها مع أحد وكنت أتصور فى ذلك الوقت، أن هذه الأفكار ما دامت قد دارت فى رأسى فلابد أنها تدور فى رؤوس الآخرين وما المانع؟

حتى هذه الفتاة التى أعجبتنى لم أشأ أن أقول لها ذلك. ولم أتصور أنها لم تفهم هذا الاعجاب أو هذا الاهتمام. وانشغلت عنها وعن كل شيء بالدراسة ونسيتها أو نسيت نفسى. وتخطيت السنوات الجامعية الأربع. وفى يوم من الأيام كلفنى أحد زملائى بأن أذهب لخطبة زميلة لنا. وليست لى تجربة. ولا ناقشت بينى وبين نفسى معنى هذه الخطبة. ولا معنى الخطبة. ولا حتى ما الذى أقوله لها. ولكنه صديقى. وقد استعرت منه الكثير من الكتب وكان كريما معى. ثم انه رجل مستقيم. وطيب. وهذا يكفى. ولكن كل هذه مؤهلات لأن يكون صديقى، ولكن ليست مؤهلات لأن يكون زوجا لهذه الفتاة ثم ماذا يكون موقفى لو رفضت. لم أناقش ذلك. ولا كان عندى وقت لكى أسأل وأتساءل. هو يريد هذه الفتاة. وهو كلفنى أن أنوب عنه. وذهبت وكأننى سأطلب منها كتابا أو كراسة المحاضرات. وماذا فى ذلك. سأقول لها : هاتى الكتاب ستقول. تفضل. وأقول : شكرا. وأعود إلى البيت ومعى الكتاب بعد أن أكون قد قرأت بعضه فى الطريق إلى البيت. المسألة سهلة.

ولكنى على سبيل استعجال ما سوف يحدث تخيلت أننى سأجلس إليها وأتحدث معها عن أيام الدراسة. ونتذكر بعض النوادر. وأنتهز هذه الفرصة وأقول لها : صديقى فلان يريد أن يتزوجك. فما رأيك موافقة طبعا؟ شكرا.. ثم أخرج. وقد انتهى كل شيء وأعود إلى صديقى وأقول له : مبروك وافقت.. وبعد ذلك أسأله إن كان قد اشترى كتابا جديدا لعلى ألقى عليه نظرة.. وكان السؤال عن الكتب هو نوع من طلب الثمن على المجهود الذى بذلته من أجل أن يكون عريسا..

ولم أكد أنتهى من هذا الحوار فى رأسى حتى وجدتنى أمام بيت هذه الزميلة. وأنا أعرف الشقة. ومددت يدى إلى الجرس وانفتح الباب وكانت سيدة كبيرة فى السن. كل شىء فيها يقول: من أنت؟ وماذا تريد. ولماذا جئت فى هذه الساعة المبكرة؟

نسيت أن أقول أننى ذهبت فى الساعة السابعة والنصف صباحا قبل أن أذهب إلى مكتبة الجامعة.

ولم أقل لها صباح الخير وإنما قلت كأننى لا أريد أن أضيع الوقت: فلانة موجودة؟

ـ موجودة لماذا؟

ـ أريدها.

ـ تريدها؟ الآن؟ لماذا؟

وأحسست كأننى اصطدمت فى حائط. أو كأننى بعد أن اصطدمت فى الحائط أريد أن أستمر فى ذلك أملا فى أن أخرج رأسى من الناحية الأخرى..

هذه الصدمة أيقظتنى. فقلت لها بعشم الطالب فى زميلته الطالبة قولى لها أننى موجود هنا وأريدها فى أمر هام ولمدة دقيقة واحدة. فأنا أريد أن أسمع منها كلمة واحدة: نعم أو لا..

ولم أعرف بوضوح ما الذى يقوله وجه هذه السيدة. ولم أفهم سبب استسلامها وانفتاح الباب وإشارتها لى بالدخول والجلوس فى إحدى الغرف. ودخلت. وجلست. وعرفت من رائحة البيت. رائحة النوم التى اختلطت بروائح المطبخ ودورة المياه. وأصوات بعيدة من كل جانب مع همس متقطع. والساعة على الحائط تقول: السابعة وليست السابعة والنصف كما ظننت.

ولكن صوتا فى داخلى طمأننى: ولكنها هى أيضا طالبة. ولابد أنها تصحو فى هذا الموعد. وسوف تغير ملابسها وتجىء حالا.. ولا يهم أبدا إن كان اليوم هو الجمعة أو السبت.. ثم تنبهت إلى أنها لم تعد طالبة. لقد تخرجت. وأنا أيضا تخرجت. ولكنى رغم ذلك أصحو مبكرا. ولابد إنها مثلى. فمن الصعب أن يتخلص الانسان من عاداته أيام الدراسة بهذه السهولة هكذا قلت لنفسى. واسترحت إلى أفكارى.

وجاءت خادمة ومعها فنجان شاى وقلت: شكرا وسألتها: أين فلانة؟

قالت: نائمة. وسوف تصحو فى العاشرة. وكأن عقارب الساعة دارت حول عنقى من السابعة إلى العاشرة ولسعتنى بعدد الدقائق والثوانى. واتجهت إلى الباب إلى الشارع بجوار الحائط حتى لا يرانى أحد.

وبعد ذلك بعشر سنوات قابلت هذه الزميلة. وسألتنى عن حقيقة هذه الزيارة المبكرة. وعرفت الحكاية. وضحكت. فقد تزوجت وتزوج هو. ولو تقدم لها فى ذلك الوقت لرفضته. فقد كانت تريدنى أنا.. فهى الفتاة التى كنت أعجبت بها ثم انشغلت عنها تماما. واشتغلت هى أيضا. ولما عرفت منها هذه الحقيقة لم يظهر الأسف على شىء من معالمى.. فقد كنت غارقا فى هموم أخرى أعمق وأسوأ!

إنتهت هذه القصة أو ماتت فى داخلى. وكان من عادتى أن أقتل القصص لكى أستريح منها. فقد كان قلبى، أو معدتى، مقبرة للغزاة.. وكنت أضحك فيما بينى وبين نفسى وأقول. بل مقبرة للجميلات!

لماذا؟

لا يوجد عندى أسباب مقنعة ولكن لابد أن الخوف من أن أقع.. أو أصطدم أو أنكشف. ولكن ما الذى أخفيه عن الناس؟ لا أخفى أى شىء. فأنا مستمر وإلى الأمام وإلى الخلف.. إلى جهة ما. ولابد أن الفتاة التى

أتعلق بها أو أتعلق فيها سوف تعطلنى عن الاتجاه.. وإن كنت لا أعرف بالضبط ما الذى أتجه إليه.. أو ماهى وجهتى.. أو من الضرورى أن تكون هناك وجهة.. أليس الوقوف فى نفس المكان هدفا. أليس الاتجاه إلى الداخل إلى داخل العقل وجهة؟

واعتدت على شى جديد : أن أستشير الصديق.. ولا أقول اعتدت وإنما أقول حاولت. أن أقول بحساب. وحتى كلمة صديق هذه لم يكن لها هذا المعنى الذى تفهم منها. هل هو صديق. هل هو زميل. هل هو الملازم لى فى المكان والزمان. هل هو شريك غرفتى. وكان هو يقول أكثر وأنا أقول أقل وكنت أكره هذا الذى يقول ويقول وكأنه يعترف.. وكأنه يعتذر وكرهت أن يعتذر أحد عما يفعل. فليفعل ما يشاء وليذهب فى ستين داهية. ما دام قد فعل. وأكره الذى يندم. ما الذى يندم عليه أى إنسان. إنه فعل. وعليه أن يضع على رأسه ما كان يضعه تحت قدميه. ولا أحد يموت لأنه ارتكب غلطا صغيرا. ويجب ألا يموت. وألا يغرق الانسان نفسه فى الأعذار للناس والندم على ما فعله للناس. وكان زميلى هذا كثير الندم. وكرهت أسلوبه فى الكلام وفى الحياة.

وكنت أتمنى أن أقول له أى شىء.. أن أكون على راحتى معه. ولكنه كثير الكلام.. زجاج لا يخفى ما وراء مصفى يسخط من كل شىء. وليس الشخص الذى تأمن إليه. وكنت قد منيت النفس أن أروى له وأحكى وأسأله وأستمع إليه.. ولكنه خذلنى.. طبيعته خذلتنى!

ووجدت فى الكتابة أو فى الخيال وسيلة لاخفاء حقيقتى. فقد كنت أضع على لسان شخصيات قصصى المتواضعة كلاما أتمنى أن أقوله لأى أحد. وبهذه الشجاعة. وقد لاحظت أن ما يجىء على لسان هذه الشخصيات لا يدخل فى باب الشجاعة، وإنما فى باب الوقاحة. ولم أكن أعرف السبب : كيف أكون إلى هذه الدرجة من الجرأة!

ولابد أن يكون السبب هو أننى أريد أن يكون كذلك مع بعض الناس.. أو أن الانسان عادة يكون هكذا عندما يكون وحده. فإذا واجه الناس قال شيئا آخر، أو نفس الشيء بصورة أخف أو ألطف.. ولا أعرف بالضبط إن كان الذى قلته فى ذلك الوقت هو أنى سمعت أو رأيت أو جربت وكنت أهز رأسى تأكيدا لهذه المعانى. أو كنت أهزها محاولة لخلط هذه المعانى فى رأسى لعلها تظهر على وجهى وأواجه بها الناس..

وإكتشفت فجأة، وليتنى لم أفعل أن صاحبى هذا ليس له أية مزايا غير أننى أجده فى أى وقت. فهو هناك دائما. ومن الغريب أننى ذهبت معه لأول مرة لمشاهدة فيلم «الكونتيسة الحافية» و «ذات الحذاء الأحمر»..

وأغرب من ذلك أن والده من أشهر صانعى الأحذية فى القاهرة. هل هى صدفة؟ لا أعرف. هل سمعت ذلك عن مهنة والده، ثم نسيت ذلك. أو أننى فى اللحظة التى سمعت عن وظيفة والده أخفيتها تحت رجلى، حتى لا تضايقنى، لا أعرف بالضبط.

الآن فقط عرفت لماذا أطلت الوقوف أمام غرفة الكاتب الأمريكى همنجواى فى مدينة هافانا بكوبا. لقد كانت الغرفة باهرة ساحرة. إنها مليئة بعشرات بل مئات الأحذية!

وقبل ذلك أدهشتنى غرفة نوم العقاد، فقد فرشها بالأحذية.. وكل الأحذية واسعة حتى لا توجع قدميه.. كلها أحذية.. تصور! كأنه قرر أن ينقل قدميه من الأحذية، كما تنتقل الشمس بين الأبراج.. أو كأنه أراد أن يقول لنفسه أن الأرض كلها حذاء له.. أو أن الدنيا من أولها لآخرها جزمة قديمة واسعة طويلة جديدة.. ولكنها جزمة! أو أن الدنيا كما تريدها.. إن شئت جعلتها تحت قدميك، أو جعلت نفسك تحت قدميها.. والذين يضعونها فى أقدامهم تضعهم على رأسها ـ أو هكذا تصورت يوم دخلت غرفة العقاد لأول مرة. قبل وفاته بأيام. وإن كنت قد دخلت بيت العقاد عشرين سنة، ولكن فى الغرفة المجاورة لغرفة نومه..

ومما أذكره عن الفيلسوف اليونانى ابنداوفليس أنه عندما قرر الانتحار، ذهب إلى بركان أثينا. وألقى بنفسه فى البركان وطار حذاؤه فى الهواء. وعندما سقط الحذاء على رؤوس الناس، أدركوا أنه انتحر. لقد كان حذاؤه دليلا عليه.

وتوقفت طويلا عندما كتب الأديب الانجليزى هـ.ج. ولتر. كيف أنه يعرف الناس من أحذيتهم. وكيف أنه كان يضع ـ كالنساء تماما ـ عينيه على أحذية الرجال. وهو فى ذلك يشبه ماسح الأحذية أيضا. وكان يقول أنه يستطيع أن يصلح كل أحذية الانجليز لو أن رعاة الأغنام فى استراليا قد اهتموا بقطعانهم أكثر!

ولكن لأن الانجليز لا يريدون الاعتماد تماما على أغنام استراليا أو غيرها، صنعوا أحذيتهم متينة تعيش بالسنوات دون أن تنتظر نشاطا زائدا من رعاة الأغنام وتجارها فى استراليا! آه لو كان لى حذاء جديد وأنا طفل، ولو مرة واحدة، ما انقلبت على رأسى كل أحذية التاريخ.. ولا علقت عينى بحذاء سندريلا..

ولا ضحكت بهذه الصورة الهستيرية عندما كنت فى طوكيو أبحث عن حذاء جديد. ولكن اليابانيين يعتذرون ويسرفون فى الاعتذار وعيونهم الضيقة على قدمى الكبيرة. وكانوا إذا أتوا لى بحذاء أجده صغيرا إلى جوار قدمى.. حتى أننى فى إحدى المرات وضعت قدمى كلها فى صندوق العلبة فكان أكبر من العلبة.. وتمزقت العلبة وتمزقت جوانبهم من الضحك!

وعلى الرغم من أن الأحذية قد تلونت وتبدلت وتغيرت مصانعها بين مصر وأوروبا وأمريكا.. وعلى الرغم من انها ضاقت واتسعت وصمدت وذابت الأرض التى أمشى عليها على ظهور السفن وفى داخل الطائرات.. وعلى الرغم من أن رأسى أصبح بعيدا عن قدمى.. فقد كبرت.. وامتلأ رأسى بالكثير.. ولم أعد أنشغل بقدمى. فبين قدمى وعينى وأذنى مسافات طويلة

وهموم ثقيلة.. فإننى فى بعض الأحيان أحس أننى انكمشت فجأة فى داخل حذاء..

اننى أتذكر فى هذه اللحظة كيف أن سلحفاة صغيرة كانت فى بيت أمى.. وكيف أن هذه السلحفاة الصغيرة تسللت إلى أحد الأحذية ولم تستطع الخروج ولم يتمكن أحد من الاهتداء إليها.. وماتت!

ولاحظت أن فى أول رحلاتى إلى أوروبا سافرت إلى إيطاليا.. إلى جنوب إيطاليا. وأمضيت وقتا طويلا فى مدينة تارانتو. وكتبت عن ذلك كثيرا جدا. وقد وقعت فى إحدى القنوات. وانتهزت هذه الفرصة ورحت أنبش فى طفولتى عن مخاوف. وأعرضها فى الهواء لتجف وتموت.. مثل السمك إذا خرج من الماء.. وأسرفت فى ذلك. ولكننى اكتشفت أن هذه المنطقة التى وقعت فيها، والتى هزت أعماقى هى التى يسميها الجغرافيون «كعب الجزمة الايطالية».. فشكلها كالحذاء تماما!

ربما..

وعندما زرت جزيرة سيلان. ذهبت أبحث عن الأماكن التى عاش فيها الزعيم أحمد عرابى. فى مدينة كولمبو وفى مدينة كاندى.. وفى كاندى وجدت بيت عرابى. ووجدت بعض الذين رأوه وهو يركب حصانه نظيف الملابس لامع الحذاء..

واتجهت إلى جبل آدم.. هذا الجبل، يقال إن آدم عليه السلام عندما نزل من الجنة إلى الأرض.. وضع قدمه الأولى فوق هذا الجبل. ولذلك سمى جبل آدم.. وفوق هذا الجبل توجد بحيرة. هذه البحيرة لها شكل القدم ولذلك سميت قدم آدم. وقد شاهدت هذه البحيرة وشاهدها ابن بطوطة من قبل. هذه البحيرة هى أكبر حذاء من الحجر عرفه الانسان.. فأبونا آدم نزل عاريا حافيا..

وفى مدينة كولمبو عاصمة سيلان رأيت الناس يمشون على النـــار. ليس أبناء سيلان فقط.. ولكن عددا من الأوروبيين المتصوفين.. ولم ألاحــظ أن أقدامهم قد تغطت بالزيت أو بالشحم، أو أية مادة عازلة..

ورأيتهم يخرجون من النار دون أن تكون أقدامهم قد احتـرقت. هـذا عجيب!

إذن من الممكن أن يمشى الناس حفاة.

وهناك نظريات خبيثة تقول: أنه من الأصح أن يمشى الانسان حـافيا بل وأن ينام عاريا. وهناك أغنية مشهورة تقول: دعونا ننام على الـطريقة السويدية!

والطريقة السويدية هى أن ينام الانسان عاريا تماما تحت غطاء ثقيـل. فالجسم يجب أن «يتنفس».. وليست القدم فقط، ولكن بقية الأعضاء!

وفى يوم من الأيام كنت أدعو إلى ذلك، وبحماس شديد. ولكن الآن فقط عرفت لماذا!

وكان أستاذ أساتذتنا سقراط الفيلسوف العظيم يمشى عـارى الصـدر والقدمين والرأس.. أو حافى الرأس والقدمين.

ونحن تلامذة صغار كنا مبهورين بـالفيلسوف سـقراط. وأذكر أن أول التهاب فى صدرى أصابنى عندما حاولت أن أكون سـقراط. حـاولت ذلك ساعتين بعدهما نمت طويلا!

ولا أنسى سعادتى عندما هبطت بى الطائرة العسكرية التـابعة لـلأمم المتحدة فى مدينة عنيتب بأوغندة. وسبب هذه السعادة ليس لأننى وجـدت مكانا مريحا بعد رحلة خاطفة مخيفة فى الـكونغو.. ولا لأن المنـظر كان جميلا. والهدوء عميقا. ولا هو الشاى الجيد الذى كنت أشـتهيه. ولا لأن الناس روحهم حلوة. وضحكاتهم تسبق الفهم والكلام. ولـكن لأن النـاس كانوا يرتدون الطرابيش وحفاة فى نفس الوقت!

ولم يكن هناك سبب معقول لكى أخلع حذائى.. وأمشى فى شوارع مدينة تريفندروم فى جنوب الهند. صحيح كانت الأمطار غزيرة. ولكن لم يكن هذا هو السبب الحقيقى. وفى كتابى «حول العالم فى ٢٠٠ يوم» وصفت الأمطار أنها كانت تصل إلى الركبتين ولا ضرورة للحذاء. ولكن هناك كثيرون يرتدون أحذيتهم من الصحفيين والأجانب. ولكنى بلا شعور وبحماس غريب خلعت حذائى. ووجدت أن هذا سلوك منطقى: فلا قيمة لحذاء يمتلىء بالماء فالحذاء مفروض أنه يحمى القدمين من الماء. ولكن إذا كان عاجزا عن ذلك، فالحذاء نفسه فى حاجة إلى حماية!

كان هذا الجرح فى أعماقى لم يندمل: لا حتى مد فمه ولا خف دمه!

وإنما هو يئن من حين إلى حين..

وعلى الرغم من أن الدنيا كلها شغلتنى عن قدمى وعن الذى فى قدمى، فان أوجاع طفولتى لم تخف ـ منتهى القسوة على نفسى، ومنتهى التعاسة أيضا. فالمليم الذى فقدته وأنا طفل، قد عوضنى الله عنه ملايين الملاليم.. ولكن ما يزال الطفل، لأنه صغير دائما، يبكى على الذى راح ولا يسعد بالذى جاء ـ إنه طفل صغير يستبد برجل كبير!

ولم تكن الزميلة الجامعية التى أهدتنى أباجورة وحذاء تقصد أى شىء عندما اختارت ذلك. فهى لا تعلم ولا تتصور اننى كنت أسكن فى بيت بلا كهرباء. وكيف لها أن تعرف ذلك.. ولا هى تعلم قصة حياة حذائى.. أو قصة حذاء حياتى.. فهى لا تعلم ولا يمكن أن تعلم. وعندما أذكر اليوم ما فعلته بها فإننى أخجل من نفسى مرة أخرى.. فقد ثرت عليها. وألقيت بالأباجورة على الأرض أما الحذاء فقد ألقيته فى النيل. لماذا؟

انها لم تعرف.. ويستحيل أن تعرف فقد ماتت منذ وقت طويل!

ولابد أنها أراحت نفسها عندما تصورت انها لم تختر الوقت المناسب لتقديم هديتها. ولم تكن تعلم أن هناك ضغطا تاريخيا عنيفا على هذا

الشاب الواقف أمامها.. وأن هذا الضغط هو عبث طفل لا يريد ان يــرضى ولا يريد أن يسكت ولا يعرف كيف!

ولابد أن كون إعجابى بالشوارع المظلمة وحرصى عليها.. أن أمشى فيها وأجلس فى ظلامها بسبب هذه الرغبة فى أن أختفى.. أو أن أخفى قدمى.. وأن هذه الرغبة استمرت رغم أن الأحذية تغيرت والشوارع تبدلت وعواصم الدنيا تتابعت الواحدة وراء الأخرى.. ربما..

وهدتنى قدماى إلى شارع الجبلاية فى الزمالك أنه شارع التنهدات.. انه قطعة من نعيم الله.. هكذا كنت أقول لنفسى.. أمشى فيه فلا يرانى أحــد، ولا أرى أحدا.. كل الناس أشباح فى هذا الشارع.. وصاحب الحذاء والذى لا حذاء له سواء فى شارع الجبلاية.

وهذه الأشجار على الجانبين آه لو تــلاصقت أكثــر، فــكانت ســتارا يحجبنى آه لو تساقطت أمامى فى وقت واحد فكانت بساطا أمشى عليهــا.. آه لو تجمعت عصافيرها معا، وحملتنى وغطتنى بريشها، وطارت ولا تعود..

آه لو كنت شجرة ضمن ألوف، آه لو كنت ورقة ضمن ملايين..

لا أريد أن أكون أنا. لقد تعبت..

وأنا أريد أن أتوارى من هذا الذى اسمه أنا.. تعبت منه.. وتعب منى..

فأنا لا أعرف كيف أجامله أو أعالجه.. أو أظهره أو أخفيه.. والا أحييه ولا أميته..

فلا أنا أم لطفل ولد، ولا مغيره لجنين لم يولد..

وهناك شىء آخر أضيف إلى نفسى..

لقد كبرت وأنا أخجل من عواطفى.. من مشاعرى..

هذه حقيقة. أنكرتها كثيرا. وقاومتها. وتعبت من هذه الحرب النفســية وأضعت طاقتى وأهدرتها لأننى غاليت فى إخفائها والضغط عليها. وإرهابها وكتم أنفاسها..

فقد أحسست أن لى قلبا. نبت لى قلب. أصبحت أسمعه يدق.. كثيرون يسمعونه فى سن مبكرة. ولكنى سمعته متأخرا.

وكأن هذا القلب قد ادخر دقاته ليتحول من ساعة يد إلى ساعة حائط.. إلى ساعة ميدان.. إلى جرس كنيسة.. يدقنى ويهزنى.

وكان لابد أن يكون لى رأى فى هذه الفتيات.. هذه التلميذات الصغيرات هذه الجارات..

أخافهن جميعا. وهذه العيون التى ترحب بى أرحب بها.. هذه الايدى الطويلة أفلت منها، هذه المسافات التى تذيبها العطور يجب ان تبقى مسافات.. وان تكون بعيدة عن قلبى بقدر ما هى قريبة من أنفى وعينى..

يجب أن يبقى كل شىء هناك..

فالناس متفرقون. متباعدون! هذا صحيح. ولكنهم يتباعدون ليتقاربوا ويتقاربون ليتباعدوا.. ذهابا وايابا..

ـ ولكن لماذا أكون وحدى هكذا؟

ـ لاننى مختلف عن الناس!

ـ ولكن أنت أحسن؟

ـ لا أحد أحسن من أحد.

ـ كلنا أسوأ من كلنا؟

ـ نعم.

ـ ما الذى أخذته من هذا التباعد؟

ـ لا شىء!

ـ ما الذى أعطيته؟

ـ لا شيء!

ـ ما اسم هذه الحياة؟

ـ لا أعرف لها اسما!

ـ هل هى حياة؟

ـ طبعا حياة!

ـ حياة تنقصها الحياة؟!

ـ لا أعرف.

ـ هل هو حياء من الحياة؟

ـ يجوز.

ـ وانت سعيد؟

ـ لست سعيدا.

ـ عندك حل؟

ـ لا حل!

ـ ولا تريد ان تحاول؟

ـ لا أريد!

ـ ما الذى تريده؟

ـ لا أريد أن أريد.. وفى نفس الوقت لا أريد ألا أريد!

ـ آه فهمت!

ـ ماذا فهمت؟

ـ فهمت انك تريد ان تكون أى شيء.. أن تكون اللا مبالاة نفسها.. القرف نفسه.. العدم ذاته.. صحيح هذا؟

ـ نعم.

أنا أفضل أن تكون جزمة!

ـ لماذا؟

بعض الأحذية تتحرك ولها موسيقى!

ـ لا تقل لى جزمة!

ـ اسف.. انك رجل تئن تحت وطأة جزمة.. إذن انت عبد لجزمة.. ان الحرية عندك هى ان تطالب بسقوط الاستعمار الحذائى لحياتك؟

ـ لا تقل لى ذلك!

ـ ما الذى تريدنى أن أقوله لك!

ـ قل لى أن جرحى عميق.

ـ وهل هذا هو الجرح الوحيد.

ـ طبعا لا.

ـ إذن كيف تعيش إذا كنت لا تنسى ـ كيف تتحرك إذا كنت تحمل ماضيك إلى حاضرك وإلى مستقبلك.. دعنى انظر إلى ملابسك.. انك لا ترتدى ملابس وانت طفل.. انك كبرت عليها. انك ترتدى ملابس الرجال.. فلماذا تحرص على أحذية الأطفال بالذات، وملابس الرجال.. اننى أعرف علاجك الوحيد.. أعرفه!

ـ ما هو؟

ـ كيف عالج الفيلسوف الاغريقى مينا غورس ابن اخته؟

ـ لا أعرف.

ـ لقد صحا هذا الفيلسوف على طفل يبكى طول الليل.. وسأل عن السبب. فقيل له إنه يبكى لان النار أحرقت يده.. وسأل ان كانوا قد وضعوا عليها بعض الزيت. فقالوا له: نعم. فعلت ذلك.. فتساءل الفيلسوف:

فما الذى يبكيه بعد ذلك. قالوا له : أن يده مـا تـزال تـوجعه.. وذهـب الفيلسوف إلى الطفل ونظر فى يده.. وفى اصابعه فوجد النار قد أحـرقتها.. وصحب الطفل إلى مكان آخر.. وأشعل النار ووضع يده الاخـرى.. وهـو يقول. الآن تستطيع أن تبكى على يدك اليمنى ولن تفكر فى اليسرى!

ـ وماذا تقصد..

ـ كما فعل مينا عورغس.. يجب أن يضربك أحد بالحذاء على رأسك فلا تعود تشكو من قدميك!

ـ ...

ـ ...

ومثل هذا الحوار وأطول منه وأقسى دار بينى وبين نفسى .

ولكن لابد ان الخوف من الحياة فى القاهرة قد تسلط على نفسى.

لابد أن الخوف من المرض فى البيت : فقد كان أبى مريضا وأمى أيضا.

لابد أن الخوف من الفقر. ان تزداد فقرا.. وهذا الخوف بـالذات هـو الذى يرمينى إلى طفولتى، أو يرمينى بطفولتى. ما عدت امشى حافيا على ارض من المسامير..

وفى حياتى حوادث كثيرة تعجلت بسبب الخوف. وضاعت منـى فـرص كثيرة. وساءت علاقات كثيرة. وتأخرت اجتماعيا ونفسيا بسـبب الخـوف الشديد.. الذى يشتد على مرور الايام.

مثلا. فى إحدى الليالى سرت مع فتاة صغيرة. كنت أراها صـغيرة مـع انها كانت فى مثل سنى. ولكن كانت لها رغبات صغيرة. فهـى تـرفض أن تذهب إلى مطعم. ولو شاءت ذلك لترددت : إذ كيف أدخل مـطعما امـام الناس. ماذا يقولون؟ وكيف أقول إذا قالوا.. وكيف ادافـع إذا هـاجموا.

وكيف أهاجم إذا تجرأوا.. لا أعرف. ولكنها كانت تفضل ان تأكل السندوتش فى الشارع. ومشينا فى شارع الجبلاية بالزمالك.. وكانت تفضل شراء الترمس على السودانى: ناعم ولذيذ.

وكانت تجلس تحت كل شجرة. وتلمسها. كأنها تريد ان تشهدها علينا. ولكن على ماذا؟ على لا شىء تفعله أو حتى تريد أن تفعله.

وكنت قد تجاوزت ـ نفسيا ـ مرحلة الاحساس بقدمى. وادهشنى انها اقترحت ان نسير حافيين. وترددت. وفجأة خلعت حذاءها. وجلست على أحد المقاعد تحت المصباح. ومدت يدها وخلعت لى حذائى. ورأيت ساقيها وقدميها. وفى عيوننا اتفاق على المعنى الذى دار بيننا: فعلا ساقاها جميلتان!

هى تعلم ذلك. وانا قد علمت ذلك..

وكلما سارت على طوبة تأوهت فى نعومة. وتساندت على.. اذن هذا هو الهدف. قلت لنفسى. فليكن! وكان الطوب والظلط وأغصان الاشجار تعترض قدميها. وكانت فرصة لكى أكون أكثر احتمالا. ولم أتأوه.. كأننى عشت طول عمرى حافى القدمين. ولكنى أردت ان اكون مختلفا. اذن فأنا استطيع الاحتمال. واستطيع ألا أقول آه لأتفه الأسباب. وهذه هى التجربة ان هذه الفتاة قد أثارت رجولتى. ودفعتنى إلى ان أكون مختلفا. وإلى ان اتحمل الاعذار لكى اتساند عليها. أو ألفتها.. أو أثير اشفاقها على. انها تفعل ذلك.. انها لعبة نعرف معناها نحن الاثنين. ونتظاهر بأننا لا نعرف. مثل كل لعب الحب والغزل.. كلها معروفة. ولكن المحبين يحرصون على أن يتظاهروا بأنهم لا يعرفون. وتمضى اللعبة حتى تنقلب إلى شىء جاد.!

وكنت أحب ان يظهر الكثير من الطوب فى طريقها بل ان تدخل شوكة فى قدمها لترمى بنفسها على.

ولو فعلت فإننى لا أدرى ما الذى كنت أفعله بعد ذلك. هـذه الفـكرة أفزعتنى. وتمنيت أن يكون هناك طوب فقط..

وطلبت منها أن نكتفى بهذا القدر من المشى. ولم تفهم فنحن لم نمش سوى عشرات الأمتار فى النور، والباقى مئات فى الظلام.. ولما حـاولت ان تفهم لم أجد ما أقوله. وادعيت ان واحدا من المشاة قد عرفنى.. وادعيت انه يسكن إلى جوارنا. وأننى تشاجرت معه.. ولم تفهم الفتاة. وكلما حاولت أن تفهم، تعثرت فى قصة ضعيفة ركيكة غير مقنعة. ولكى أخفى عجزى عن الاقناع افتعلت الغضب..

وقالت : هل زهقت منى.

فقلت : لا طبعا.

ـ اذن ماذا حدث ؟

ـ تعبت.

ـ من ماذا ؟

ـ لم أنم منذ يومين.

ـ ولكنك لم تخبرنى بذلك.. هل ما يزال والدك مريضا.

ـ مريض وكفى. وكفى !

وأنهيت المناقشة. وانهيت هذه العلاقة الرقيقة الجميلة.

هل هناك سبب مقنع ؟

لا يوجد أى سبب غير الخجل من أن أمشى مع فتاة فى الشارع. ولـكن لماذا ؟ لا يوجد سبب. أنه هكذا. لا أريد أن أسير إلى جوارها لا أريد أن أرتبط بها. لا أريد أن أكون احدى عاداتها، ولا أن تكون احدى عـاداتى. لا أريد نفسى هكذا : مربوطا مرتبطا !

فالخوف غريزتى الاولى.. مهما اختلفت الاسماء التى أصفها لهذا المعنى فمثل: الخجل والوجل.. والحياء والانزواء والانطواء.. والفردية والتأمل والتفلسف.. والتدين..

والخوف هو الغريزة الأولى التى اهتزت تحتها وتسترت عليها..

وقد ولدت خائفا..

والانسان يولد خائفا، ثم هو يبحث عن الامان بعد ذلك..

وقد ولدت خائفا لا من والدى ولكن عليهما. فهما أكثر خوفا منى.

والطفل عندما يولد لابد أن يبكى، أو لابد أن يجعلوه يبكى. فإذا بكى علموه بعد ذلك الا يبكى. أو يبكى بحساب. وكان الطفل من ألوف السنين يبكى. فاهتدت الوحوش اليه وأكلته. وتعلم الأباء أن يسدوا فم الطفل حتى لا تسمعه الوحوش. فظل لا يبكى ألوف السنين، وبعد ذلك عندما أصبح الطفل آمنا على نفسه راح يبكى كما يشاء.. ويتركونه يبكى. لأن البكاء عمل صحى. يوسع صدره ويقوى أحباله الصوتية..

والبكاء هو الذى أصبح اسمه بعد ذلك· الأدب والفن. فالاديب يبكى حبرا والفنان يبكى زيتا، ويتمزق أوتارا ويئن كتلا من حجر أو خشب أو حديد..

وكلهم يبكون مثل حيوان اللؤلؤ الذى نفذت قطعة من الرمل إلى لحمه، راح يفرز دموعه حولها حتى يبعدها عن لحمه.. فحبات اللؤلؤ ليست الا نوعا من التسامى بالالم..

وليس هذا كله، هذا الذى قلت هنا وفى عشرات من كتبى، الا نوعا من التخفيف عن نفسى. فالادب والفن هو أن يتخفف الانسان من متاعبه.. يجمعها ويعرضها ويتركها وراءه ويذهب يبحث فى نفسه عن شىء جديد.. أو شىء قديم يعرضه بصورة جديدة..

وانا لم أفعل اكثر مما تفعل العروس الأوروبية.. فهى تلقى حذاءها القديم على صديقاتها.. والتى تلتقط الحذاء أولا، هى التى تصبح عروسا قبل الأخريات..

وأهل العروس يفعلون ذلك أيضا فهم يلقون بالاحذية القديمة وراء العروسين.

وعندما تقوم سفينة جديدة بأولى رحلاتها، يقف الناس على الشاطئ يلقون وراءها بالاحذية القديمة.. أى يعطونها شيئا من حياتهم.. من حياة ألوف الناس : بركة لها..

وكان الممثل الانجليزى كين لا يواجه جمهور المسرحية الجديدة الا بحذاء جديد.. أما حذاؤه القديم.. فالممثلون يرمونه به قبل أن ترتفع الستار..

وانا ألقى بأحذيتى القديمة وراء كل قارئ. رجلا كان أو طفلا ما يزال لعله ان يكون أحسن حظا وأهدأ بالا وان يرتفع بهمومه عن قدميه.. وان يتفرغ إلى ما فوق كتفيه فليس بالحذاء فقط يتعذب الانسان.. لكن إذا وضع رأسه وقلبه فى حذائه حتما أطول الطريق الذى سوف يقطعه العقل والقلب، إذا قدر صاحبها ان يضعها فى مكانهما الصحيح !

وما أكثر ما فى النفس من هموم، وما أكثر ما فى الطفولة من جروح، ولكن ما أقل ما يتسع وقت الانسان ليعرف ذلك.. فإذا عرفه استراح منه ! اتساع صدرك لا وسع صدرى، وان ألقى اليك ببعض ما فى نفسى..

فهرس

صفحة
قلب صغير.. قلب كبير.. إنه قلبى ٥
كلمة أولى ٩
بنات الليل ١٣
ليلة الزفاف ١٩
إنه الملل ٢٧
لأنك غيور أبله ٣٣
حتى يرزقها الله بابن الحلال ٤١
غرام فى التليفون ٤٩
آداب القرود ٥٩
الخطيئة امرأة ورجل ٦٧
جواب حبيبى ٧٣
أشياء صغيرة ٧٩
مرة فى العمر ٨٥
للمخطوبين فقط ٩١
وجودية وحب وزواج ٩٩
سعادات ١٠٧

صفحة

اسمح لى أنصحك ١١٣

ضائع فى القدس.. ١١٩

فتش عن المسامير.. ١٢٥

أوراق ضائعة.. ١٣١

كأس واحدة.. ١٣٧

رقصة الدب ١٤٣

الأرض الضيقة.. ١٤٩

الحذاء صغير.. ولكن الحكاية ليست صغيرة ١٥٥

كتب للمؤلف

1 وحدى مع الآخرين
2 عذاب كل يوم
3 طريق العذاب
4 الوجودية
5 يسقط الحائط الرابع
6 كرسى على الشمال
7 ساعات بلا عقارب
8 قالوا
9 مدرسة الحب
10 شارع التنهدات
11 الخبز والقبلات
12 يا من كنت حبيبى
13 من أول نظرة
14 قلوب صغيرة
15 شىء من الفكر
16 الخالدون مائة
17 وجع فى قلب إسرائيل
18 عزيزى فلان
19 هى وغيرها
20 أعجب الرحلات فى التاريخ
21 القوى الخفية
22 الصبر أو دراسات أخرى
23 طلع البدر علينا
24 الحنان أقوى
25 كل شىء نسبى
26 أضواء وضوضاء
27 حتى أنت يا أنا
28 وداعا أيها الملل
29 ألوان من الحب
30 من نفسى
31 الحائط والدموع
32 الذين هبطوا من السماء
33 وكانت الصحة هى الثمن
34 أرواح وأشباح
35 الذين عادوا إلى السماء
36 صالون العقاد
37 التاريخ أنياب وأظافر
38 على رقاب العباد
39 غريب فى بلاد غريبة
40 لعنة الفراعنة

٤١ أوراق على شجر
٤٢ ديانات أخرى
٤٣ مع الآخرين
٤٤ يوم بيوم
٤٥ كلهم سقطوا
٤٦ أحاديث الرئيس
٤٧ فى السياسة (جزءان)
٤٨ نحن أولاد الغجر
٤٩ لو كنت أيوب
٥٠ بقايا كل شىء
٥١ حول العالم فى ٢٠٠ يوم
٥٢ هى.. وعشاقها
٥٣ اليمن.. ذلك المجهول
٥٤ بلاد الله... خلق الله
٥٥ أطيب تحياتى من موسكو
٥٦ الأحياء المجاورة (مسرحية)
٥٧ حلمك.. ياشيخ علام (مسرحية)
٥٨ مين قتل مين؟ (مسرحية)
٥٩ جمعية كل واشكر (مسرحية)
٦٠ كلام لك يا جارة (مسرحية)
٦١ الامبراطور جونزا (مسرحية) ليوجن أونيل
٦٢ رومولس العظيم (مسرحية) لديرنمات
٦٣ هبط الملاك فى بابل (مسرحية) لديرنمات
٦٤ أمير الأراضى البور (مسرحية) لماكس فريش
٦٥ فوق الكهف (مسرحية) لتنسى دليامز
٦٦ بعد السقوط (مسرحية) لأرثر ميللر
٦٧ الشهاب (مسرحية) لديرنمات
٦٨ سواد عينيها (مسرحية) لجان جيرودو

رقم الإيداع ٢٥٠٤ ٨٨
الترقيم الدولى ٣ ـ ١٩٨ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة ٨٠ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)